ABU ABDO ALBAGL

عدنان فرزات

جمر النكايات

خطوات للنشر و التوزيع

مدونة أبو عبدو

إذا أعجبك الكتاب فرجاءً حاول أن تشتري النسخ الورقية
الكتاب والناشرون العرب معترون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم ضمانٌ لاستمرارهم
من أقوال الرفيق الغير مناضل أبو عبدو البغل

جمرالنکایات

اسم الكتاب: جمر النكايات

المؤلـــف: عدنـان فرزات E-mail : Farzat11@hotmail.com

الإخراج الفني والغلاف: بسام صياغه

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي: أسـعـد فـــرزات

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية 2010

عدد النسخ 1000

عدد الصفحات 106

طبع بموجب موافقة اتحاد الكتاب العرب رقم /112/

تاريخ 2010/3/10

ISBN: 9789933440145

الناشر:

خطوات للنشر والتوزيع

دمشق ص.ب: 34415

هاتف: 00963 11 (56399760 - 5610383)

فاكس: 00963 11 56399761

البريد الإلكتروني info@khatawat.com

katawat@yahoo.com

الموقع www.khatawat.com

عدنان فرزات

جمر النكايات

أبي الذي عُرضت عليه

شموس الذهب في يمينه،

وفضة القمر في يساره، فآثر كنز الأخلاق

دير الزور.. مدينة باسقة الروح...

وادعة مثل شامة فوق خد نهر الفرات...

ولدها التاريخ على رمالٍ من نسيان .. ثم غاب

مساء الخير يا ذا الزمن الذي عاودني دون سابق تَذكّر.. مساء الخير وأنت تزورني في هدأة الوقت، منتهزاً انسحاب الشمس من أفق الأيام، تاركةً وراءها كل هذه العتمة.. مساء الحزن على أُناسك الذين يستلقون الآن بصمتٍ أزلي تحت هذا الثرى.. وعلى الذين غابوا في أروقة الحنين.. مساء النُّسَّاك على أشجار تنمو كمآذن الخشوع فوق ضفتي هذا النهر العجوز.. مساء الرهبان على بيوتٍ أبوابها مشرعة بحب للغرباء.. لكل الغرباء.. حتى أنا.

قبل سنوات كانت هذه المقبرة أبعد ما تكون عن مركز مدينة دير الزور، أما اليوم فقد التصقت بأطرافها حتى أصبحت جزءاً من معالمها.. كان للمقابر هيبتها في السابق أكثر من اليوم، كنا حين نمر بجانبها ونحن في طريقنا إلى منطقة «الملحة» للتنزه، ننظر إليها بخشوع وإجلال، وقد نترجل

عن الدراجات الهوائية التي نستقلها احتراماً للأرواح التي نحسّها تحلق بسكينة صامتة فوق حجارة الآخرة.. يومها لم تكن روح السيدة هداية قد سكنت هنا.

كنا نمر بهذه المقبرة أيضًا، أثناء بحثنا عن طائر «الصعو» لاصطياده، هو طائر يشبه طائر الهدهد، إلا أنه بلا ألوان.. تماماً مثل التفاصيل الرتيبة لحياة ساكني هذه المدينة. كان صديقي ماجد يأبى اصطياد الطيور التي تقف على شواهد القبور، يقول إنها ملبوسة بأرواح الميتين.

لم يراودني شعور الرهبة من المقابر الآن وأنا أعود لزيارة دير الزور بعد عشرين عاماً.. يتلاشى الفزع من الموت حين يدنو العمر منه، فبعد الأربعين تبدأ الدنيا تنزلق من بين أصابعك وأنت تنظر بحيادية إليها. أكثر ما تقدر فعله هو انتظار ما ستجود عليك به ذاكرتك من أيام مضت..

منظر القبور تحت الأعشاب الخضراء بدا غير ذي تأثير على المسافرين، فلم يطرأ أي تغيير على ملامحهم حين انعطفت الحافلة إلى اليمين، وصارت المقبرة أسفل أنظارنا، فرمقناها ببرود..

ترى أي من هذه القبور يحنو اليوم على رفات السيدة هداية؟.

الزوجان الشابان اللذان يجلسان في المقعدين المطلين على المقبرة، بدا لهما الجو شاعرياً، فاكتفيا بنظرة هلع عصرية عابرة قبل أن تضع الفتاة رأسها على كتفه لتسأله بغنج لا يتناسب وأجواء المقبرة، التي بدأت تغيب عن أنظارنا:

«هل سننتهي هنا»؟

أجابها بتصنع محاولاً أن يحشد وعيه ليبدو متميزاً:

«أنا وأنت لن يغيبنا التراب.. حبنا مثل نبتة ستطلُّ من خلال الصخور»

لم يكن هذا رأي الزوجين العجوزين في المقعد الذي أمامهما، إذ ارتفعت أكفهما باضطراب وتحركت شفتاهما بقراءة الفاتحة، ثم مسحا وجهيهما، وأشاحا بنظراتهما بعيداً عن الموت، وكأن المسافة التي تفصلهما عنه تقلصت بعد إحساسهما بالخلود على مدى أربعين عامًا من الزواج .

فتح سائق الحافلة الشباك الملاصق لكتفه الأيسر، كي يخرج منه دخان السيجارة التي أشعلها رغم قوانين منع التدخين، فتخيلت أن روح السيدة هداية بنظراتها الحادة كنصل محارب عتيق، ستطل عبر النافذة. أيقظني صوت الرجل الذي أمضى طوال الطريق نائماً بجنبي:

«الحمد لله على السلامة».. ثم نظر عبر زجاج النافذة وهو يزيح بأصابعه غشاوة النوم عن عينيه ويتمتم موجهاً كلامه إلي :

«دير الزور تغيرت كثيراً أخ عادل»..

كنا تعرفنا إلى بعضنا بشكل خاطف في بداية الرحلة، ولكنه ما لبث أن غطَّ في نوم عميق، وظل كذلك حتى عند نزولنا في استراحة مدينة تدمر، بعد انطلاقنا من دمشق.

لم يعد لي في هذه المدينة بعد انتقال والدي ووالدتي إلى حماة، سوى أختي منى وبناتها الست وابنها الوحيد. منى لم تتجاوز الابتدائية في تحصيلها الدراسي، ولكنها كانت تبهر الناس برسوماتها التي يعجز خريجو كلية الفنون الجميلة عن عمل مثلها، كانت تشارك في معارض جماعية مع فنانين أكاديميين، وكان التجمع الأكبر للجمهور من نصيب لوحاتها:

«أما زلت تذكر يا عادل.. »؟ قالت منى بلهجة حالمة وهي تضع كأس الشاي أمامي.

«طبعاً.. أذكر لوحة الراعي، ولوحة المرأة الفيتنامية التي تمسك البندقية مع ابنها».

منى توقفت عن الرسم منذ سنوات، ولمَّا سألتها عن السبب اكتفت بالنظر إلى زوجها الذي رد بالإنابة عنها وكأنه يدافع عن نفسه:

«كنت دائمًا أشجعها ولكن مسؤولية البيت والأولاد.. أنت تعرف.. »

****

نـــور

مساء مدينة دير الزور موحش كعيني غزال تائه، قررتُ أن أصطحب نور ابنة أختي الوسطى في رحلة ذكرياتي إلى قلب المدينة..

نور فتاة ذكية تدرس علم الاجتماع، وتتمتع بطول فارع وجمال هو مزيج من دفء شرقي ورشاقة غربية، وكان هذا الجمال يجلب إلينا نظرات المارة، التي عليّ أن أزجرها بنظراتي حين تطول:

«خالي إلى أين نحن متوجهان»؟

«إلى حي الكجلان»..

كان هذا الحي من أغرب أحياء المدينة، فساكنوه ينقسمون بين متعلم جداً وأمي جداً، ولهم رهبة كبيرة بين أهالي المدينة، حتى رجال الأمن، في عزّ سطوتهم، كانوا يتأدبون في مشيتهم حين يمرون بالحي، ولا يلتفتون يمنة أو يسرة، ولو حصل أن أحداً منهم لاحت منه التفاتة عميقة إلى فتاة تمر في الحي، حتى وإن كانت غريبة عنه، فقد لا يضمن ردة فعل مجاميع الشبان الموزعين في زوايا الحي، لأن أعرافهم تضع أي فتاة تمر في هذا الحي تحت حمايتهم.

كان عدد منهم يربي الحمام، وبعضهم الآخر ما يكاد يخرج من السجن حتى يعود إليه.. ولهؤلاء إشارات خاصة يتداولونها لإخفاء الحشيش حين يستشعرون بوجود «كبسة» من الشرطة عليهم، وغالباً ما يتذمر رجال الشرطة حين يكلفون بهذه المهمة التي لا يعرفون إلى أي كارثة ستنتهي..

كانوا يلتقون عند المساء بكثرة، ويتوزعون على شكل مجموعات كأنهم حراس الظلام القادم. بعد قليل تنير سينما «فؤاد» الكائنة في منتصف الحي أضواءها المسلطة على إعلانات الأفلام الملصقة في بيت زجاجي معلق على جدار السينما الأمامي، فيُفتضح شكل الدخان الثقيل المتصاعد من لفائف التبغ «الملغوم».. كانت الإعلانات والصّور تغري الجمهور بالدخول إلى السينما، والذين

غالباً ما يكتشفون بعد متابعتهم للفيلم بأن لا وجود للمشاهد المثيرة الموجودة في الإعلانات، فهي إما فخ وضع لاستدراجهم، أو أن الرقابة حذفت المشاهد. حتى أن عددًا من الجمهور كان بعد خروجه من الفيلم يعود فيتجمهر أمام الإعلانات:

«نريد أن نستوفي ثمن ما دفعناه»..

كان كسّار أكثرهم قوة يدعونه «زكرت» أي الرجل القوي بلهجة أهل المدينة، وعلى الرغم من ضآلة جسمه إلا أنه يتمتع بقلب شجاع لا يوقفه عند حد من حدود المجازفة.. وكان أخوه عمار أشد منه بأساً وأضخم منه حجماً، وقد قتلته شجاعته، فانكسر قلب كسّار، وأصبح لا يقوى على النظر في عيون الناس الذين استصغروه لعدم أخذه بثأر أخيه:

«وهل كنت أعرف طريق هذا الجبان؟»..

«وإن أرشدتك إلى مكانه، ماذا تعطيني؟».. قال أحد الواقفين، فرد كسار بلهفة مَنْ يستعد لدفع أغلى ما يملك:

«حلال عليك كل «كشَّة»[1] الحمام»..

---

1 سرب

وقتها كان عمار يسبح في نهر الفرات، ولم تكن له ناقة أو جمل في مشاجرة حصلت بين شابين، فاستجار أحدهما به فأجاره، وطلب من الآخر أن يلقي المسدس الذي في يده فرفض، وظل عمار يتقدم نحوه، وحامل المسدس يتراجع إلى الوراء مرتجفاً من سطوة عمار وهيبته:

«أرجوك يا عمار .. ارجع..، لا تدفعني لتصرف آخر»..

«وِلك تعال يا جبان هات المسدس، لست أهلاً لحمله أصلا»..

شعر الرجل بالمهانة، فمنظره أصبح يدعو إلى الازدراء وهو يتقهقر، أمام رجل أعزل، وهو الذي يحمل مسدساً.. عمار رجل أعزل، إلا من جسده القوي وقلبه الشجاع، وخطواته التي راحت تطبع بصماتها فوق طين الشاطئ كجنزير بلدوزر يلتهم بيتاً..

وجد حامل المسدس نفسه محصوراً بين جسد عمار الصلب وشجرة اصطدم بها ظهره، فلم يعد ثمة مجال للهرب، مدّ عمار يده طالباً المسدس مرة أخرى.. أحس الرجل المحاصر بأنفاس عمار كأنها زَفَرات من نار، ارتجفت يده وتصبب الخوف من جسمه، ثم فجأة دوّى صوت الموت كنعيق غربان في مساء خريفي.. هوى الجسد على مراحل، كعمارة شاهقة فجّرت بالديناميت، ثم ارتطم

الجسد الضخم بطين ضفاف النهر الذي بدأ خيط الدم المنسكب من صدر عمار يذوب فيه.

اختفى القاتل بعدها ولم يعد أحد في المدينة يراه، تاركاً كل هذا العار لكسّار الذي انكسرت نفسه، وأصبح يتفرس في وجوه العابرين إما بحثاً عن القاتل، وإما ليعرف ما تكنُّه نظراتهم تجاهه.

كان كسّار قبل هذه الحادثة يمشي فاتحاً ذراعيه إلى الخلف، نافخاً صدره كبطريق يسير صعوداً باتجاه جبل جليدي، ولكنه الآن لا يفعل أكثر من أن يجلس في زاوية الحي يدخن الحشيش، أو يخلو إلى طيور الحمام على سطح منزله، ولم يعد يطيّره، كما كان يفعل في السابق، خشية أن يقول الناس عنه إنه غير حزين على أخيه.. كان سرب الحمام يحلق مرتين في اليوم، مرة عند الصباح، وأخرى قبيل حلول المساء، ويحمل صاحب السرب بيده عصا طويلة جداً مربوط برأسها منديل من القماش لإخافة الحمام وجعله يرتفع أكثر في السماء ولمنعه من الهبوط السريع بعد تطييره. أما إذا أراد إعادة السرب إلى عشه فإنه يستخدم حيلة عاطفية مثيرة، فهو يلوح له بطائر أنثى سبق وأن زوّجها لكل السرب، ثم يحرمه منها ، حتى إذا ما لوح له بها أثناء طيرانه وقع السرب كله على وجهه عائداً إلى الأرض.. هذا الوضع قريب منا نحن البشر.؟!

وهناك مزاد للطيور في المدينة يقام كل يوم في مقهى خاص بمربي الحمام كانت تقع بالقرب من مبنى شركة الكهرباء، وقد يصل ثمن الطير فيها إلى آلاف الليرات.

لم يحمل كسّار وحده عار مقتل أخيه عمار، بل إن جميع شباب حي الكجلان حملوه لأنهم كانوا يتقاسمون حتى المشاعر.. لذلك خيّم الوجوم على أركان الحي، وأصبح الشبان فيه أكثر نزقاً وضيقاً. وفي إحدى الليالي تشاجروا مع أفراد من حي آخر:

«لو فيكم خير كنتم أخذتم بثأر عمار»..

وقعت هذه الجملة على رؤوسهم كسقف من الأسمنت غير متقن البناء.. فانسحبوا يلملمون مذلتهم، وتوجهوا إلى كسّار:

«إما أن تأخذ بثأر أخيك أو تنتقل من الحي».

طأطأ كسّار رأسه وراح يتفقد «الشنتيانة»[1] التي لفها حول خصره متمتماً في سره:

«أين اختفى هذا الجبان»؟.

شارع سينما فؤاد الذي يقع فيه حي الكجلان، يزدحم

1 سيف من معدن مرن جدًا يلتف حول الخصر

بالمارة عند المساء، فهو نقطة عبورحيوية بين شرق المدينة وغربها، وهذا الازدحام أدى إلى فتح الكثير من المحلات التجارية على جانبي الطريق، وصار كل من لديه منزل في هذا الشارع يهدمه ويعيد بناءه مع دكاكين أسفل العمارة.

«خالي.. لماذا سموه حي الكجلان»؟

قالت نور وهي تسحب يدها من مرفقي وتكمل بابتسامة ماكرة: «أنت شاب وسيم وأخشى أن تقطع نصيبي من العرسان الذين لا يعرفون أنك خالي».

«سمّوه حي الكجلان لأن عائلة كانت تقطن الحي وجميع أفرادها مصابون بمرض الثعلبة، والذي يصاب بهذا الداء يسمونه أكجل.. وهناك رواية أخرى تقول إن الحي لحقه هذا الاسم لأن معظم الشبان فيه كانت رؤوسهم حليقة دائماً بسبب دخولهم المتكرر إلى السجن»!!

****

الروح المغلقة

توقفتُ فجأة عند جدار قديم في حي الكجلان، راحت عيناي ترسمان صورة كنت رأيتها في الثمانينيات، يومها كانت المدينة أصغر، ولكن القلوب أكبر.. وراء هذا الجدار جرت أحداث حكاية غيرت مجرى الحي وأزاحت عن وجه ساكنيه قتامة الحزن التي خلّفها مقتل عمار، حينها انشغل الناس بالحكاية وتناسوا قصة عمار، ليس هرباً من الواقعة، ولكن لأن الحدث الذي جرى كان أوسع من مساحة الذاكرة.

«وراء هذا الجدار يا نور كانت تسكن السيدة هداية وابنتها المصابة بمس من جنون»

استدرنا حول الجدار حتى وصلنا باباً حديدياً أسود أصم، لا يزال منذ تركته قبل عشرين عاماً غارقاً في الغموض..

خلف هذا الباب كانت تجلس السيدة هداية، تنظر إلى الناس بصمت ثقيل وبالكاد ترد عليهم السلام. كانت في العقد السادس من عمرها، لها عينان داكنتان وقد جعلهما الكحل العربي ذو الخط السميك، والذي كانت تستخدمه كدواء، أكثر وحشة ورهبة.. جسمها الممتلئ وقامتها القصيرة. جعلاها مثل جذع سنديانة مقطوعة. ترتدي الثياب السود منذ أن حلت بها كارثة وفاة زوجها، ثم ابنيها اللذين فقدت أحدهما في حادث سير، بينما سافر الآخر إلى الخارج واختفت أخباره. ثم اكتملت فجيعتها بجنون ابنتها ملكة..

عندها اضطرت السيدة هداية إلى التقاعد من منصبها كمديرة لمدرسة البنات، وهي التي كان لقوة شخصيتها حضور في نفوس الطالبات اللواتي كنّ يسارعن إلى مسح بقايا الماكياج من وجوههن بمجرد أن يرينها، حتى ولو في الشارع خارج المدرسة.. ذات مرة تسلق أحد الشبان سور المدرسة، ثم ألقى برسالة إلى إحدى الطالبات، ورأت السيدة هداية المشهد من خلال نافذتها في غرفة الإدارة، فأسرعت إلى ساحة المدرسة تبحث عن الفتاة، وعرفت منها اسم الشاب فذهبت بنفسها بعد انتهاء الدوام إلى أهله لتخبر والده بما فعله ابنه، وأخذت منه تعهداً بعدم

تكرار ذلك وإلا ستشتكيه إلى المخفر لو كررها.

جنون ابنتها ملكة كان شرساً، فالآخرون يخشون الاقتراب منها كلما جاءتها نوبة هستريا عارمة، وفي بعض الأحيان كانت تمزق ملابسها أمام المارة، وحين يعود إليها هدوؤها، تلفها النساء بالعباءات ويعدنها إلى منزلها.. كانت ملكة جميلة جداً وعلى الرغم من جنونها إلا أنها كانت في لحظات صحو عابرة تصبغ شعرها باللون الأحمر الناري، فتبدو مثل مقاتلات أسطوريات.. كانت لا تتوانى عن التحدث بصوت عالٍ عن أسرار حياتها الزوجية قبل أن تُطلَّق من زوجها، وبدا أن الناس يصدقون كلامها أو لديهم الرغبة في التصديق حتى وإن وصفه أحد المارة : بـ «كلام مجانين».. ذات مرة دخلتْ إلى دائرة المصرف الزراعي وصرخت فجأة في وجه مهندس زراعي متهمة إياه بالتحرش بها.. كان الرجل وقوراً وخجولاً أربكته الصدمة ودفعت دماء الحرج والخجل لتصبغ وجنتيه، ولأنه لم يكن يعرف عنها شيئاً فقد ظل يحاول أن يبرر لها أنه يراها لأول مرة وأن أخلاقياته لا تسمح له بفعل شيء من هذا القبيل.. وخرج مدير المصرف على أصوات الصراخ محاولاً الاستفسار، بينما وجدها مهندس زراعي آخر،منافس للأول،فرصة للإساءة إلى سمعة زميله، فغمز المديرَ بعينه بما يعني أن زميله: «شرشح سمعة المكان».. ثم اقترب من رئيس الديوان باثّاً في أذنه : «من زمان وأنا أشك فيه.. ولكنكم

كنتم دائماً تقفون ضدي».. بدا أن رئيس الديوان لا يريد أن يكذب ما حصل هو الآخر: «تفضلي يا أخت إلى الداخل ودعينا نتفاهم.. أحسن من الفضايح عند الباب».. ولكن أحد الموظفين وكان من حي الكجلان نفسه الذي تسكن فيه ملكة، نزل للتو من الدور الأعلى وحل المشكلة بأن أفهمهم الحقيقة.

ظلت السيدة هداية معتزلة الناس لأكثر من عشر سنوات، لا أحد يزورها ولا تزور أحداً حتى كسا الغموض حياتها، كانت تذهب إلى التسوق بعد الفجر بقليل، كي لا تضطر إلى ملاقاة الناس في الطريق.

آخر زيارة كانت تلك التي قامت بها مجموعة من طالباتها عقب استقالتها، يومها حاولن ثنيها عن تلك الاستقالة، لكنها اتخذت قراراً حاسماً، ثم أغلقت الباب وراءهن ولم تعد تفتحه لمخلوق.

كانت السيدة هداية تتألم كثيرًا حين ترى ابنتها وهي تمزق ثيابها في الشارع، فترمقها بنظرات حزينة دامعة، من زاوية الباب الموارب.. دون أن تقدر على منعها من ذلك، وكلما حاولت الخروج وراء ابنتها، أمسكت بقدميها ستة عقود ثقيلة من الزمن. أقصى ما كانت الأم تستطيع فعله هو أن توصد على ابنتها الباب، ولكن حتى هذه الطريقة لم

تُجدِ نفعاً، إذ تصعد ملكة إلى السطح لتمارس الجنون ذاته، بل وقد تزداد شراسة، فلا تتوانى عن قذف المتجمهرين أسفل المنزل بما تطاله يداها من أوانٍ قديمة.

«أمر محزن».. قالت نور وهي تشيح بوجهها عن أحد المتطفلين الذي اقترب منا ليعرف سبب توقفنا في هذا المكان، ثم ما لبث أن صرخ بصوت جهوري:

«عادل.. أقسم إنك عادل.. لاتقل غير ذلك».. ثم فتح ذراعيه ليحضنني ففاحت منه رائحة عجين، تذكرت أنه كاظم عامل المخبز :

«أهلا كاظم، طمنّي عنك»؟..

«أنت طمنّي، أنا كما أنا منذ تركتنا، والفرق الوحيد اليوم أن المخبز لم يعد يجني الأرباح كما في السابق، اليوم الناس تأكل الخبز الإفرنجي والكاتو.. كما أن الأفران كثرت»..

«وما أخبار شقيقك كمال»؟

«أوه، وضعه الآن فوق الريح، فبعد أن ترك العمل في مصنع الثلج أصبح يبيع مواد غذائية خارج البطاقات التموينية، ثم التقى بمدرس مادة الجغرافيا الذي كان يدرّسهُ، فأعطاه هذا مبلغاً من المال ليشاركه تجارته، فما كان من كمال إلا أن أخذ المبلغ واختفى عن الأنظار، وبعد

عام علمنا بأنه سافر إلى دمشق وفتح مطعماً للفلافل في منطقة صناعية».

بدا أن نوراً تململت من هذا الحديث فلكزتني بكوعها كي نغادر، فودعت الرجل متوجهاً نحو ضفة نهر الفرات إلى «الجرداق»[1] لتناول العشاء، فهمست لي نور:

«طريق المطعم ليس من هنا يا خالي»..

تدحرجت الإجابة على لساني علة مرات ثم استرجعتها قبل أن أصل إلى بيت رولا فألقي عليه نظرة شجية أشعلتْ جذوة في قلبي القديم.. ثم ادعيت:

«آسف نور، تعرفين أنني منذ عشرين سنة لم أزر المدينة.. يبدو أنني نسيت الشوارع»..

ذكاء نور أوقف استرسالي بصياغة كذبة جديدة:

«ولكنك يا خالي عندما وصلت إلى ذاك المنزل المعلق على بابه صليب توقفت فجأة كمن تحته هاوية»؟!

تبسمتُ للنادل وهو يضع قائمة الطعام أمامي وتركت أمر الاختيار لنور التي سمحتْ لها نظراتي المطمئنة أن تعيد السؤال علي:

1 المطاعم التي على ضفة النهر يطلق عليها أهل المدينة «الجراديق».

«ها.. ألن تخبرني بقصة ذاك البيت»؟

كأن سنوات المراهقة قفزت بغتة إلى عمري الأربعيني، فأجبت بصوت لا يشبه صوتي الحالي:

«تلك قصة سوف أحكيها لك في الرواية المقبلة..

****

البدء من جديد

استدرجتني الذاكرة إلى منتصف الثمانينيات، عدت إلى بيت السيدة هداية مرة أخرى، حاولت ربما بهذه الطريقة أن أهرب من ذاكرة أخرى أخذتني على حين غرة إلى بيت رولا.

في تلك الفترة كانت السيدة هداية.. (قاطعتني نور): «يبدو أنك تحترم هذه السيدة جدًا بدليل أنك لا تزال تلقبها بالسيدة»؟

أجبت على عجل بهز الرأس فقط، كون الذاكرة بدأت تزدحم بالصور القديمة، وأحسست بأن رأسي قد ينفجر لو لم أفرغها حالا: «إنها امرأة جديرة بالاحترام»..

فهمتْ نور رغبتي في الكلام، وارتشفتْ بذكاء عينيها نزقي: «أكمل خالي»..

ذات صباح صيفي استيقظ أهالي حي الكجلان على حدث غيَّر مجرى أيامهم، كانت ثمة لافتة قُدَّت من كيس طحين أبيض، معلقةٍ على جدار سينما فؤاد المقابل لبيت السيدة هداية تماماً، وقد كتب فوقها عبارة: «انتخبوا هداية»..

كانت الانتخابات النيابية لمجلس الشعب قد أُعلن عنها قبل أيام، وطُلب من الراغبين في الترشح التوجه إلى مركز المحافظة لتدوين أسمائهم، ولكن عندما توجهت السيدة هداية إلى المركز قابل الموظف طلبها بضحكات غير مهذبة، لم يصدق أن هذه المرأة الستينية البدينة والتي بدت ملامح المرض واضحة على مشيتها الثقيلة المتأرجحة على الجانبين كجبل من الرمال المنهارة، أنها جادة في ترشيح نفسها، كان الموظف قد اعتاد على نمط معين من المرشحين الجاهزين، لذلك فاجأه منظر السيدة هداية، التي رمقته بنظرة حزن صارمة، كقائد معركة مهزوم:

«أيوجد لديك في اللوائح ما يمنع ترشحي»؟

أحس الموظف بجدِّية الشخصية التي أمامه، كان يرتدي بدلة سفاري فضية اللون وأمامه سجائر من ماركة «الشرق» الرخيصة، وحثالة شاي غامق في أسفل الكأس. مدَّ يده إلى

علبة السجائر رغبةً منه في الهروب من نظراتها.. فجأة نهض موظف آخر كان يعرف قصة السيدة هداية، ويدرك وضعها كمديرة سابقة للمدرسة التي درست فيها ابنته، وقد استفزه تصرف زميله:

«أهلا سيدة هداية، زميلي لم يقصد.. »

«لا عليك، حصل خير».. قالت السيدة هداية وطلبت الأوراق اللازمة للترشح.

مد الموظف الأول يده بالأوراق وهو لا يزال غير مقتنع بما يدور أمامه:

«تفضلي.. وبإمكانك أن تأخذي الأوراق إلى المنزل وتملئيها على راحتك ثم تحضريها غدا».

عادت السيدة هداية لتجد جمهرة كبيرة أمام بيتها، وما إن تنبهوا إلى وجودها حتى التفوا حولها مستفسرين، وانقسم الحضور إلى مصدق ومستهزئ ومستغرب، لكن كسّار حسم الموقف بهيبته، حيث قوس ذراعيه إلى الخلف ونفخ صدره كمن يستعد للقتال:

«اسمعوني .. اسمعوني.. هذه الحملة حملتنا، والحرمة أم منصور لها فضلٌ على كل الحارة ويجب أن نقف معها، وإذا فيكم رجل «خلّيه» يتمسخر عليها، وإذا في أحد يقول غير

هذا الكلام يشوِّفني حاله الآن»..

ساد صمتٌ لا يتناسب وحجم الجمهور الكبير الذي بدأ يزداد عدده.. بضع همهمات مرتجفة هنا وهناك تندس في الآذان القريبة:

«كلام كسّار صحيح».. «لا يا عمي ما لنا علاقة بالسياسة».. «أي سياسة؟ المرأة تريد ترشيح نفسها لمجلس الشعب مثل غيرها».. «أنت تعرف أن غيرها ما يرشّح إلا ضامنٍ النجاح».. «لازم نكون جنبها».. «أنت تقول هذا خوفاً من كسّار».. «أنا لا أخاف إلا من الذي خلقني»..

ودوَّى صوتُ كسّار مرة أخرى، وبعصبية أكبر، مطالباً بحسم المواقف:

«ها.. ماذا قلتم»؟

حتى الذين عبروا عن رفضهم همساً هتفوا مع الموافقين:

«معك على الحلوة والمرة يا كسار»..

كانت ليلة ثقيلة كأن عتمتها سرمدية.. قرأت هداية الورقة مرتين، كل شروط الترشيح تنطبق عليها، أمسكت القلم لأول مرة منذ أن استقالت، في مرة سابقة أمسكت

القلم للحظات وجيزة حين طلب منها ضابط المخفر أن توقع على استلام جثة ابنها الذي قضى في حادث غامض، هناك من يقول إنه كان على علاقة بفتاة فطارده أشقاؤها وهو على دراجته النارية حتى تسببوا في وقوع الحادث الذي أدى إلى موته، وآخرون يقولون إنه لم يكن بكامل وعيه نتيجة تعاطيه المخدرات فلم يتمكن من السيطرة على الدراجة التي قلبته مثلما يقلب حصان لدغته أفعى فارسَه.

وضعت السيدة هداية القلم جانباً ، وقبل أن يلامس المنضدة الخشبية، تذكرت أنها استخدمته أيضا قبل خمس سنين حين وقعت لساعي البريد على آخر رسالة وصلتها من ابنها الأكبر، الذي سافر إلى كندا واختفى فيها وتبخر كبقعة ماء تحت شمس دير الزور اللاهبة في الصيف..

اسم هداية غريب على دير الزور، لذلك قيل إنها من أصول تركية، وما يؤكد ذلك أن لهجتها ليست لهجة ديرية عميقة. ومنذ أن انزوت في بيتها لم يسمع أحد صوتها، ظلت صامتة لسنوات، لكن صمتها كان معبراً وأكثر صخباً من حجارة دحرجتها فوهة بركان هائج.

لم تكن ملكة تعي ما يدور حولها، وخشيت السيدة هداية أن تفسد ابنتها عليها حملتها الانتخابية، فاقتربت

منها تود مخاطبتها بهدوء، لكنها أدركت بأن لا فائدة من ذلك، إذ شرعت ملكة بوضع ورقة الترشيح في فمها لمضغها، فسحبت أمها الورقة على عجل ثم لاذت إلى فراشها موزعة بين دموعها وحلمها الذي بدأ رويداً رويداً يضيء حنايا روحها.

بدا الليل بنفسجياً من خلال زجاج النافذة التي أطلت منها السيدة هداية، تترقب مشية الفجر الوقورة على صفحة الأفق البعيد.. تناثرت نجوم الصيف عشوائياً كعقد فرطته طفلة من حول جيدها..

كانت هذه الانتخابات هي فرصتها الأخيرة في فتح ثغرة من الأمل في جدار حياتها القاتم.. حياتها التي هوت فجأة من عليائها المترف كنخلة شامخة أزاحوها عن الدرب لشق طريق إسفلتي.

«كأنه لن يأتي».. همست السيدة هداية في سرها وهي تنتظر صبحاً حاسماً في حياتها.. صوت المؤذن في الجامع الحميدي يصل حي الكجلان عند الفجر فقط، ويغيّبه صخب النهار في أوقات الصلوات الأخرى.. نهضت يكبل النعاسُ عينيها جراء الليل الذي لم تنم فيه إلا دقائق.. صوت خيط الماء الرفيع المنسكب من الصنبور النحاسي القديم أوقدَ في نفسها شجناً قديماً حين كانت تنتظر انتهاء زوجها من الوضوء لتبدأ هي. مسحت كعب

قدمها اليسرى وهي تتمتم: «اللهم اجعلني من المتطهرين التوابين»، وترفع رأسها إلى السماء داعمة دعاءها بقطرات من الدموع.. على الرغم من آلام الروماتيزم في مفاصل قدميها، إلا أنها كانت عنيلة تأبى أن تصلي جالسة، فتبدو حين تسجد كجرف صخري هوى بعد أن مزقته عوامل التعرية.

قبل دقائق من حلول الساعة الثامنة صباحاً، حملت السيدة هداية ورقة الترشيح في حقيبة يد سوداء قديمة الطراز، وارتدت العباءة الديرية التي توضع على الرأس وتصل حتى الكعبين، ثم توجهت إلى مبنى المحافظة، بدا الموظف الذي التقته بالأمس وكأنه يترقب حضورها، فبادرها بفجاجة ودون مقدمات:

ترشيحك غير مقبول»..

كانت ثمة أخبار وصلت إلى المحافظة أمس، بأن السيدة هداية شبه مجنونة، وقد تسيء إلى الانتخابات إن هي دخلتها:

«هل تريدون أن نُمسْخِر انتخاباتنا.. أنتم تعرفون حساسية موقفنا»؟ قال أحد كبار الموظفين الذين استشيروا بشأن ترشيح السيدة هداية.

أحست السيدة هداية بطيور ترجم رأسها بحجارة من نار، ولأول مرة منذ سنوات مديدة من الصمت، تخرج عن وقارها صارخة بلحتجاج في وجه الموظف الذي ارتجفت شفتاه منزاحة عن أسنان سوَّدتها السجائر:

«وما علاقتي أنا، اذهبي إلى المسؤولين»..

«سأذهب، وهل تظنني أخاف منك أو من الأكبر منك»؟

كان محافظ المدينة يستعد للجلوس على مكتبه حين سمع صوت صراخ امرأة في مكتب السكرتارية:

«قلتُ لك أريد مقابلة المحافظ ألا تفهم»؟

«احترمي نفسك يا سيدة، المحافظ لديه اجتماع ولا يستطيع مقابلتك»..

سأنتظره حتى ينتهي اجتماعه.. اذهب وقل له هداية تريد مقابلتك»..

فُتح الباب فجأة وأَطلَّ المحافظ مستفسراً، عندما سمع اسم هداية التي استبقت كلامه بسيل من الاحتجاجات:

«هل يوجد في القانون ما يمنع ترشحي يا سيادة المحافظ؟.. هاك أوراقي تفحصها بنفسك، هل هي ناقصة؟.. هل يوجد

شرط من شروط الترشح لا ينطبق علي؟.. أقسم إنني لن أسكت وسأوصلها إلى أعلى المستويات إن لم توافقوا »..

وضعت السيدة هداية المحافظ في اختبار كبير، أيرضخ لتهديدها المشروع، أم يلقي به في ركن الإهمال، فكر أن يناقشها بهدوء ليثنيها عن قرارها:

«يا سيلة .. » (بدا أنه لا يحفظ اسمها فذكَّرهُ به مدير مكتبه : «هداية سيدي»)..

«يا سيلة هداية أنت امرأة مسنة، وقد سمعت بأنك كنت مديرة مدرسة ولك مكانتك، وقد قدَّمتِ لهذا البلد ما هو أهم مما ستقدمينه لو وصلت إلى مجلس الشعب، وأرى أن لا تتعبي نفسك أكثر من ذلك، فالواجب علينا نحن الآن أن نهتم بك ونعوضك عن سنوات التعب»..

أحست السيدة هداية بماء بارد يطفئ جذوة الغضب التي كانت اشتعلت بداخلها، فلفَّت العباءة حول جسمها كمن أنهى جولة من حرب على مراحل:

«عفواً سيادة المحافظ.. أنا ما زلت قادرة على العطاء، وأشكر مشاعرك تجاهي»..

«ولكن السياسة متعبة يا سيلة.. « (هداية سيدي.. ذكّره مدير المكتب مرة أخرى)..

أحسَّتْ بالقلق الذي اختلج في عيني المحافظ وهو يردد كلمة السياسة، فأرادت طمأنته:

«يا سيادة المحافظ، أنا أدرك حساسية ما تتكلم به، ولكنني لن أتعرض للسياسة في ما لو وصلت إلى المجلس»..

عدَّل المحافظ من وقفته، وبدا أن مدير مكتبه تعب من الوقوف، خصوصاً وأن وقفة الاحترام اقتضت منه أن يبقى منتصباً باعتدال.. خطَّ المحافظ ابتسامة دبلوماسية على شفتيه:

«لا أقصد تعرضك للسياسة في أثناء وجودك في المجلس، أقصد في حملتك الانتخابية هنا..».

«اطمئن سيادة المحافظ، برنامجي الانتخابي يتعلق بقُوتِ الناس وحياتهم وتحسين أوضاعهم، وتوفير المساكن لهم..».

همس مدير المكتب في سرِّه: «هذا ألعن من السياسة»! وتمنى أن ينتهي هذا اللقاء ليرتاح من ألم الديسك الذي بدأ ينخزه من طول الوقوف.

أجبرت السيدة هداية المحافظ على احترامها، فشعر أنه أمام امرأة مختلفة عن الصورة التي رسمها له مستشاروه.. امرأة محترمة.. ومخيفة في الوقت نفسه:

«حسناً لا مانع من ترشحك سيلة.. هداية».. (ونظر بانتصار إلى مدير مكتبه كونه هذه المرة نطق الاسم دون مساعدته).

لدى وصولها إلى المنزل، وجدت السيدة هداية جمهوراً أكبر من المرة السابقة، كان كسار يترأسهم، وما إن أطلت بمشيتها المتثاقلة حتى اقتربوا من وجهها ليقرأوا الإجابة. ولأول مرة منذ سنوات من التجهم والحزن، ابتعدت شفتا السيدة هداية عن بعضيهما فاسحين طريقاً لمرور الابتسامة الواهنة، وحالما أدركتِ الجموعُ الواقفة الإجابة أطلق كسار هتافاً حاداً ردده الجميع بالحدَّة نفسها:

«تنتخبوا مين»؟ فترد المجموعة : «هداية».. وتكرر الهتاف لأكثر من خمس دقائق والسيدة هداية تشق طريقها بصعوبة نحو الرصيف الممتد أمام بيتها، وحين ارتقته.. لفت العباءة من طرفها الأيمن على ذراعها وأومأت للجموع أن تنصت.. ثم استجمعت كل أيام المجد التي عاشتها وهي مديرة للمدرسة، أرادت أن تشحن رأسها بثقة قديمة.. لكنها وجدت نفسها للحظات عاجزة عن النطق، إما بسبب الدموع التي تعثر صوتها بها أو لكونها منذ زمن بعيد لم تقف هذا الموقف.. أحست المجموعة بموقفها فصفقت لها طويلاً قبل أن يقدمها كسار:

«إخواني، سوف نستمع الآن إلى كلمة من سيدة الحارة أم منصور»..

عندما ذكر كسار اسم ابنها الكبير منصور، عاودها ألمٌ خفيّ في القلب، لكنها حاولت القفز فوقه فنجحت، وبدأت الكلمات تزدحم على لسانها:

«أبنائي الأعزاء.. أعرف أنه موقف مفاجئ هذا الذي اتخذته في ترشيح نفسي لانتخابات مجلس الشعب.. ولكنني لم أقدم على هذه الخطوة إلا بعد دراسة وافية، فقد اكتشفت أن حيَّ الكجلان لا يوجد فيه نائب في مجلس الشعب، على الرغم من أهمية حارتنا»..

أحست السيدة هداية بالرهبة وهي تنزلق خارج كيانها، فتأججت شهيتها للكلام:

«أبنائي.. معظم الناس يظنون أن حارتنا هي حارة فتوات ومشاكل وقبضايات، ولكن يجب أن يفهم هؤلاء بأن لدينا متعلمين ومثقفين وأطباء ومحامين ومهندسين ومدرسين.. وحتى المشاكل التي تجري في حارتنا هي مشاكل حق، فنحن لا نعتدي على أحد، وأي غريب تعرض للضرب في هذه الحارة على أيدي قبضاياتها، كان يستحق هذا العقاب، إما لأنه قلَّل الأدب خلال مروره بالحارة، أو لأنه لم يحترم مشاعر الناس».

دوى تصفيق آخر حاد، تلاه هتاف صاخب من كسار: «تنتخبوا مين»، وتجيب المجموعة : «أم منصور».

أرخَتْ السيدة هداية طرف العباءة من ذراعها، فانسدل حريرها الأسود، لتبدو كفارس يستعد للكرِّ على خصومه، وتذكرت أنها وعدت المحافظ بعدم التطرق إلى السياسة، فاتجهت نحو منحى آخر:

«مطالبنا كثيرة أيها الأعزاء.. واسمحوا لي إذا وصلت إلى مجلس الشعب أن أتكلم باسم دير الزور كلها وليس فقط باسم حارتنا.. نحن مدينة منسية، حدائقنا صفراء.. رغيفنا أسود.. مياهنا شحيحة رغم مرور أكبر نهر فيها.. انظروا إلى المدن التي حولنا كيف أصبحت.. انظروا إلى محافظ الرقة محمد سلمان، كيف جعل من الرقة زهرة في حديقة الزمان»..

أحدهم بدا وكأنه محلق في فضاء آخر اقترب من أذن كسار:

«قل لها أن تطالب لنا بالحشيش»..

آخر كان يضع نظارة سوداء على عينيه، وبدا أنه غريب عن الحي، كان يغير مكانه باستمرار منصتاً لما يدور دون أن ينطق بحرف واحد، وعند الهتاف كان يوهم الآخرين بأنه

يهتف معهم بفتح فمه وإغلاقه. وما إن وقعت عينا كسار عليه حتى بدأ يتوارى كحلزون اندس في قوقعته، ولكنه وهو في طريق انسحابه من المكان، وقعت قدمه على قدم أحد الحاضرين، وكشفت لهجة الاعتذارِ أنه غريب عن المدينة. ظلت نظرات كسار تَسُوطُ الرجلَ وهو ينزلقٍ من بين الجموع، حتى أصبح خارجها ليحث خطاه مبتعداً عن المكان.

****

دموع النهر

ارتشفت نور ما تبقى من كأس العصير، ثم وضعته بقوة على الطاولة مصدرة صوت ارتطام قوي محاولة انتشالي من شرودي..

كان النهر يبدو مثل أغنية شعبية قديمة لا يحفظها إلا الأولون.. ثمة قارب يحز الآن جبهة النهر السائر بخجل شديد كأنه لا يريد أن يغادر المدينة.. يلامس المجداف سطح الماء برقة خشية أن يجرح كبرياءه، تتقاطر دموع النهر من خشب المِجذاف.. يلتصق القمر وهو في أفقه البعيد برؤوس الراكبين في القارب، بدا وكأنه وسادة من ضوء.. يمضي القارب نحو البعيد.. ويبقى القمرُ وسادة يغفو فوقها عابرون

جدد، للحظات ثم يمضون..

في بداية الأمر اعتقد اثنان من المرشحين في منطقة السيدة هداية أن الأمر مجرد مزحة ، أو أن المسألة بكل حالاتها لا تتعدى كونها جنوناً لا ينفصل عن جنون ابنتها ملكة.. وحين سُئل أحدهما عن رأيه في ترشحها أجاب:

«مسكينة تسلي نفسها».. وقال الآخر : «مو ناقصنا جنون»..

ولكن بعد أن بدأت الجموع المناصرة للسيدة هداية بالازدياد، أحس المرشحان بخطورة موقفيهما:

«ماذا نعمل»؟.. سأل كل واحد من المرشحين على حدة مستشاريه والمقربين منه.. كانت حملتهما الانتخابية قد كلفتهما مبالغ طائلة، من ولائم ولافتات وإعلانات، وبالتالي فهما لا يريدان أن يخسرا كل هذا أمام مغامرة لم يحسب لها حساباً.. فالسيدة هداية لم تكلفها الدعاية أكثر من كيس طحين أبيض قَصَّتْ قطعة منه لكتابة إعلان ترشحها.

جمهور السيدة هداية، كان مزيجاً من عاطلين عن العمل، ومربي حمام، وخريجي سجون.. ومثقفين أيضاً.. كان القاسم المشترك بينهم هو «النكاية».نكاية بالمرشحين المدعومين،

ونكاية بالأموال الطائلة التي ينفقونها، ونكايةً بالذين ينجحون كل دورة من دون تعب.. وكانوا أيضاً يجدون فيها الضمير الشعبي البسيط غير المدعوم والذي لا تحركه واسطة ولا رشوة.. روح الإنسان غير المتسلق ولا الانتهازي.. ويرون فيها شخصية اجتماعية سترتدي ثوباً سياسياً، وهو أكثر نقاء بالنسبة إليهم من شخصية سياسية تريد التسلل إلى قناعاتهم بثوب اجتماعي.

****

مفتاح انتخابي أنيق

الحي بدا وادعًا في الحادية عشرة ليلا.. الأحلام الصغيرة لساكني الحي، غادرت مع أصحابها إلى المنازل القديمة.. كان بعضهم يُفضّل النومَ فوق السطح حيث الجو حار في هذه المدينة المتكئة على ضفة الفرات كطفل غفا على ساعد أمه من التعب.. دير الزور مدينة متعبة.. وضعت لنفسها موطئ حب في صحراء باهتة، ولولا سخاء النهر لذوت أوصال المدينة باكراً قبل التاريخ.

وحده كسار كان يجلس على رصيف دكان مغلق يُدخّن حزنه في لفافة.. غاص نظره في جذع شجرة، بدت له كخصر أنثى.. على الرغم من بلوغه السابعة والثلاثين

من عمره إلا أنه لم يتزوج حتى الآن:

«هل تريدين أن أقول لأهل الفتاة إنني للتو خرجت من السجن بتهمة الحشيش»؟.. قال لأمه حين عرضت عليه أن تخطب له «غصون» التي التقت بها في الجمعية التعاونية وهي تشتري الزيت لأهلها، فأعجبت بها، ووصفتها لكسار:

«طويلة كأنها جذع نخلة، عيناها فيهما كحل رباني، شعرها جديلة سميكة تغطي نصف ظهرها»..

«لقد صعَّبتِ المهمة يا أمي.. فهذا يعني أنها لن تقبل بي»..

كان كسار وسيماً، له ملامح رجولية حادة، وشعر يرفعه إلى الوراء فيبدو مثل الممثلين القدماء.. كان يرتدي قميصاً مفتوح الأزرار عند الصدر وبنطالاً من الجينز يضع نصفه الأسفل في جزمة من الجلد تصل إلى نصف الساق، ويلف حول خصره «الشنتيانة» التي تحسسها فجأة حين اقترب منه رجل غريب يراه لأول مرة.. نهض كسار من فوره، بينما جفلت فرائص الرجل وبدا له أن أفضل طريقة لحل هذا المأزق هي إعلان نيته السليمة بأن مدَّ يده مصافحاً:

«اسمي هاني، مهندس زراعي ومدير حملة المرشح حماد»..

لم يعتد كسار على هذا الأسلوب البروتوكولي الناعم:

«هلا. خير إن شاء الله» .. قالها كسار بجفاء فطري.

«هل تقبل دعوتي إلى العشاء لنتحدث في موضوع مهم»؟

استغرب كسار هذا الطلب الذي هبط عليه فجأة فماذا يريد هذا الشاب الرقيق الذي بدا وكأنه خرج من شاشة تلفزيون بعد تقديمه برنامج عن الأزياء!.. هكذا بدا لكسار وهو ينظر إلى البدلة الأنيقة والمنديل المطل برأسه الهرمي من الجيب الأعلى.. أيقظته رائحة عطر ثمين من دهشته، فأحس بإحراج من الرجل الذي انتبه لبحلقة كسار فيه:

«أرجو أن لا تردَّ دعوتي»..

«ولكن كيف ألبي دعوة شخص لا أعرفه، ولا أعرف سبب دعوته»؟

«قلت لك إنني مدير حملة المرشح حماد، وهذا يعني أن الحديث سيدور حول الانتخابات، بما أنك مسؤول عن حملة السيدة هداية»..

بدت لهجته هذه المرة أكثر حزماً، لكنه حافظ على مسافة

فاصلة مع أي ردة فعل محتملة لكسار، الذي استرد شيئاً من هدوئه:

«حسناً.. ومتى موعد الدعوة»؟

«اليوم إذا تكرمت»..

«ولكن الساعة تجاوزت الحادية عشرة ليلاً»؟!

«الآن تحلو الجلسات»..

في الليل يسهر العشاق والمبدعون واللصوص.. قلت لنور التي بدأت تشعر بثقل في جفنيها، وقد أسندت ذقنها إلى قبضة يدها وكأنها تمنع وجهها العاجي من السقوط نعاساً..

الطريق الممتد من «الجرداق» إلى أول المدينة تقف على أطرافه أشجار النخيل وكأنها الحراس.الإضاءة الخافتة جعلت من الأشياء ظلال أشباح من الجنّ.. الرهبة التي شعرنا بها الآن، نور وأنا، شعر بها أيضاً كسار قبل عشرين عاماً وهو متوجه إلى ذات «الجرداق» بصحبة الرجل الأنيق.. ولكن شجاعته، التي هي سبب شهرته، جعلته متماسكاً رغم الهواجس التي تلاطمت في رأسه كموجٍ عصبي.. ساورته شكوك في أن يكون هذا الرجل مدفوعاً من قاتل أخيه ليتخلص منه، ولكنه ما لبث أن استغبى هذا الهاجس، فكيف يكون قاتل بهذه الأناقة؟!..

حسناً لنتفق أنه مرسل من قبل المرشح حماد.. ماذا يريد مني؟.. حدث كسار نفسه وهو يوافق على الطاولة التي اختارها له الرجل في «الجرداق»، والملاصقة لضفة النهر التي وقف فوق طينها صياد سمك عجوز.

استَرَقَ الرجلُ نظرةً من تحت أهدابه إلى كسار، فوجده هو الآخر يفعل الأمر نفسه، فأحس كلاهما بالإحراج، مما اضطر الرجل إلى البوح، ولكن بشكل موارب:

«ما رأيك في الانتخابات يا سيد كسار»؟

من غير المعتاد لكسار أن يتحدث معه أحد بشؤون السياسة، ولا أن يأخذ رأيه في مسألة حيوية كهذه، فاعتدل في جلسته محاولاً أن يخفي ارتباك إجابته الضحلة:

«تمام.. كل شيء تمام»..

«يعني ما توقعاتك للنتائج»؟

«أكيد، أم منصور ستفوز»..

«لأجل ذلك أنا وددت الجلوس معك اليوم»..

دهش كسار من هذ التمثال الشمعي الذي لا يتحرك جسمه حتى حين يتكلم فأجابه:

«وما علاقتي بكل ذلك»؟

«بصراحة أخ كسار أنت القائد الحقيقي لحملة السيدة هداية، وأنت الذي كنت وراء ازدياد عدد المؤيدين لها.. »..

قاطعه كسار محتفظاً بلحظة اعتزاز سرت في جسده:

«لا تنسَ أن السيدة هداية لها فضل على الناس وهم الآن يردون لها الجميل».

«الناس تنسى يا كسار، وبالكاد يردون الجميل لمن لا يزال على رأس منصبه، فكيف بهم مع الذين فقدوا نفوذهم وغابوا وراء ظلال الحياة»..

لم تعجب جملة الجحود هذه كسار، فطلب من مضيفه أن يبين سبب وجوده معه الآن:

«المهم ما الذي تريده الآن»؟

«لست أنا الذي يريد، بل السيد حماد».. ثم غلَّف الرجل عباراته بمفرداتٍ مغرية: «السيد حماد ساقية جارية وليس نهراً منقطعاً»..

«كيف ذلك»؟

«يعني عملك مع السيدة هداية صحيح أنه غزير اليوم، ولكنه مؤقت.. لفترة الانتخابات فقط ثم لا شيء بعدها.. أما لو تعاونت مع السيد حماد، فسوف تكون معه العمر

كله.. يريد منك السيد حماد أن تُسِّربَ له أصواتاً انتخابية من السيدة هداية»..

صمتَ الرجل برهة ليستكشف درجة ردة فعل كسار، قبل أن يقدم على أي خطوة جديدة، فقد سمع الكثيرعن نزقه وعصبيته، وضيق صدره.. وتذكر أن المرشح «حماد» أوصاه قبل مغادرته للقاء كسار بأن يضبط كلامه على إيقاع تعابير وجه الرجل، وذكره بأن اثنين من الشرطة حضرا مرة لإلقاء القبض عليه، فأرادا مباغتته من الخلف وهو جالس فما إن أحس بأيديهما تضغطان على كتفيهٍ حتى بادرهما بضربة من يديه إلى الوراء، ثم فر هارباً.. والمشكلة أن لا أحد من أهالي حيِّه يقبل بالتعاون مع الشرطة للكشف عن مخبئه.

الناس هنا كانوا يتداولون خرافة عن مقدرة كسار على تحمل الضرب الذي يتعرضٍ له في مخفر الشرطة، قالت أم كريم إنه عندما كان طفلاً، دأب على دهن كفيه وقدميه بدماء السحالي التي كان يصطادها فيحوْل دمها – حسب اعتقاده – دون شعوره بالألم.. وحكت لنساء الحي في إحدى جلساتهن الصباحية أن ابنها «غياث»، كان يدرس ليلاً في الشارع على ضوءٍ مصباح كهربائي مدَّ سلكه من داخل البيت، فأخذته سِنةٌ من نوم فاستلقى على فراش صغير كان وضعه فوق رصيف المنزل، بعد رشه بالماء لطرد وهج

الحرارة عنه، وفجأة استيقظ على صوت ضربة قوية على الجدار، فنهض مفزوعاً ليجد كسار وقد قتل بكفه المجردة عقرباً كان يدنو من غياث، وظلت أم كريم مسترسلةً بالكلام، قابضة على الحديث لا تفلته خشية أن تتسلمه غيرها من النساء، ظلت تثرثر حتى وهي تلفّ رأسها بمنديل وضعت فيه مفتاحًا كبيرًا، معتقدة أنها بهذه الطريقة، التي ورثتها عن أسلافها، سوف تخفف آلام الصداع.

«ماذا قلت يا أخ كسار».. همس الرجل الأنيق الجالس قبالة كسار ثم أرجع ظهره إلى الوراء محدقاً في يدي كسار ليتأكد أنه لم يمسك طبقاً أو ملعقة أو سكيناً..

كسار كان عاطلاً عن العمل، ومثل هذا العرض يعد بالنسبة إليه مدعاة للإغواء. بدأ يفكر بالتزاماته تجاه طيور الحمام التي تتطلب المزيد من المال، فلم يكن يطعمها أنواعاً رخيصة من القمح، بل يجدد لها الطعام بين الذرة الصفراء والبيضاء والجلبّان، ويضع في أرجلها «حجولاً» تصدر أصواتاً كما لو كانت جارية تتبختر على بلاط قصر. والعرض هذا قد يهيئ له أيضاً أصنافاً أخرى أفضل من هذا «المعجون البني» اللعين الذي يتعاطاه.. والأهم من ذلك -فكّر كسار- أن المال سيجلب له زوجة مثل الصيدلانية الجميلة التي أحبها بصمت.

كرر الرجل السؤال دون أن ينتابه الملل، فقد شعر بارتياح مبدئي لصمت كسار، مما شجعه على الإيغال في العرض:

«سوف نقسم المبلغ على ثلاث دفعات.. دفعة مقدماً، وأخرى في منتصف مدة الانتخابات، والثالثة بعد صدور النتائج، وسوف تبقى على تواصل مع السيد حماد حتى بعد وصوله إلى المجلس»..

هذه المرة قَصُرتْ مدة الصمت لدى كسار:

«لا، هذه القسمة لا تعجبني».

«تفضل، كيف تريدها»؟

«على دفعتين، دفعة خلال يومين، وأخرى قبل الاقتراع بأربعة أيام»..

«حسناً لن نختلف.. ولكن نحن أيضاً نريد أن نضمن حقنا»..

«ماذا تعني»؟

«نريد أن تقسم لنا على المصحف إنك ستحوّل الأصوات إلينا، وأن تسلمنا البطاقات الشخصية للناخبين»..

اشتعل غضبٌ مفاجئ في وجه كسار، لكنه لم يدع ناره تلتهم هذه الفرصة، فرد متجاوزاً انزعاجه:

«أنت تتحدث مع كسار، وكلمتي كلمة شرف اسأل عني يا أخ.. »

«هاني عرفتك بنفسي قبل ذلك»..

«بصراحة المهمة أصبحت صعبة»

«أنت رجل قبضاي ومعدَّل والموضوع ليس سهلاً».. وبنظرة ماكرة أراد هاني أن يحرض شهوة المال الفطرية بداخل الإنسان، ليستخدمها كأداة ضغط وإقناع:

«لا تنس أن الموضوع فيه دفع نقود.. ».

لم يعرف كسار في حياته ما معنى المفاوضات، ولم تكن طباعه النزقة تؤهله ليكون دبلوماسياً في تصرفاته حتى مع طيور الحمام العزيزة على قلبه.. كان قاسياً وجلفاً إلى درجة أنه اغتاظ يوماً من أحد طيوره لأنه كان يهبط على سطح غريم له في تربية الحمام، مما اعتبره عاراً، فأقسم كسار أن يلقن هذا الطائر درساً يؤدبه به طول حياته، فكَمَنَ له على سطح غريمه وانتظره إلى أن هبط، ثم انقض عليه كخيمة انكسر عمودها فجأة، وبمجرد أن أمسك به استل سكيناً من جيبه وبتر إصبع قدمه.. ومن يومها كلما اقترب الطائر

من هذا السطح تذكر آلام إصبعه فأحجم عن النزول.. ومن حينها انتشرت هذه الطريقة بين مربي الحمام.

أحس كسار بعد حواره مع هاني أن شخصية جديدة ولدت للتو بداخله، لتقف إلى جانب شخصيته القديمة.. شخصية لا يعرفها، من قبل.. الآن فقط التقى بها فمدتْ إليه يدها لتصافحه، لكنه تردد وأنكرها في البدء.. حدّق فيها ملياً، مستغرباً وجودها بداخله، لكن مظهرها الجذاب كان مغرياً.. هي شخصية كسار آخر لا يشبهه في شيء.. فهذا الجديد، مهادن لديه المقدرة على المراوغة وضبط انفعالاته وفق الموقف البراغماتي الذي يصادفه، كفّاه ناعمتان كجناحي فراشة، هذا الجديد يرتدي بدلة جديدة، وإن كانت ألوانها البنية غير متناسقة مع ربطة العنق الحمراء.. ينتعل حذاء لميعاً وجورباً أخضر.. «هذه الشخصية تلائم الصيدلانية التي يحبها كسار القديم».. قال كسار الجديد في سره ومضى مودعًا هاني:

«سأعطيك جوابي غداً»..

****

مساومات

البيت صامت كعادته.. وحدها قطة فوق السطح تثير جَلَبَةً أثناء مرورها بين الأواني القديمة الصدئة، الظلام يضفي على المكان رعباً آخر.. لم تستجب ملكة لطلب أمها بإطفاء ضوء الغرفة استعداداً للنوم، فاضطرت أن تتركه مضاء بعد أن كبل الإرهاق قدميها من الرسغين. قررت حجب الضوء عن عينيها بغطاء السرير، وما إن مدت يدها لتسحبه حتى فاجأها صوت طرق على الباب الحديدي، فتحرك جسدها الثقيل بخفة لم تعتدها منذ سنوات، وفي لحظات وجدت نفسها وراء الباب تسأل:

« مَن»؟

«أنا عبدالفتاح.. المرشح عبدالفتاح»..

«نعم ماذا تريد»؟.. قالت السيدة هداية بضيق واضح.

«آسف لأني أزورك في وقت متأخر، ولكن أود التحدث إليك بأمر مهم إذا سمح وقتك»؟

كان عبدالفتاح هو المرشح الثاني في منطقة السيدة هداية، وقد تعمَّد الحضور في وقت متأخر كي لا يراه أحد وهو يفاوض السيدة هداية التي احتارت في مجيئه:

«ما الشيء المهم الذي يجعلك لا تنتظر لغاية الصبح.. ألا تعلم بأنك تطرق باب امرأة وحيدة في وقت متأخر»؟. ثم تذكرت أنها ليست وحيدة فمعها ملكة.. لكنها ما لبثت أن أكّدتْ لنفسها: نعم وحيدة..

ابتلع عبدالفتاح مهانته بصمت، فهو يرشح نفسه لأول مرة، وإغواء الكرسي يجمد المشاعر أحياناً، ويجعلها متسامحة مع الإهانات إلى أبعد الحدود.

«أعرف أخت أم منصور أنني أتصرف الآن بلا ذوق ولكن الموضوع يتعلق بالانتخابات».. ثم صمتَ ليستطلع ردة فعلها..

«طيب.. تفضل»..

همّ عبدالفتاح بالدخول عبر الباب الذي فتحته السيدة هداية، لكنها صرخت بنزق:

«أقصد تفضل لتتكلم.. وليس تفضل إلى الداخل»..

تلفَّت عبدالفتاح حوله خشية أن يكون رآه أحد وهو يخوض في وحل هذا المأزق، لكنه اطمأن حين وجد أن العتمة أحاطته بستارة طبيعية:

«أظن أنني أنا وأنت نكمل بعضنا في الانتخابات وربما سنحقق نتائج جيدة لو تحالفنا»..

لم ينتظر عبدالفتاح هذه المرة ردة فعل السيدة هداية، فبدا وكأنه يرغب في التخلص من حمل مشروعه الثقيل مرة واحدة، مهما كانت النتائج:

«أنت يا أم منصور لك اليوم شعبية واسعة، وأنا من عائلة كبيرةٍ ولي أيضا أنصاري.. فلو مرَّرْنا لبعضنا أصواتاً سنفوز معاً»..

أحس بالدقائق تمر في ساعته كما لو أنه رأى نفسه في كابوس وذئبٌ يطارده.. ربما كانت عيناها الجارحتان توحيان بتلك القسوة.. وربما إجاباتها الصارمة.. وفي كل الأحوال قرر عبدالفتاح أن لا يناقشها أكثر من ذلك، سواء وافقت أم رفضت.. كان يريد الخلاص من هذا الموقف فحسب.

نظرت السيدة هداية إليه وهي ساهمة الحزن.. حكيمة القلب:

«اسمعني يا عبدالفتاح.. ولدتُ في هذه المدينة وحيدة.. وعشت وحيدة.. وسأدخل الانتخابات وحيدة»..

هل للهزيمة لون آخر؟.. لا أظن.. (حدّث عبدالفتاح نفسه وهو يغادر المكان متلفتًا حوله خشبية أن يكون أحد غيره شاهد سيول الكلام وهي تجرفه كحصاة ملساء في أخدود وعر).

بدا نهار الحي أكثر نشاطاً هذا الصباح.ثمة شيء مختلف لافت لم يحدد ساكنو الحي ملامحه في البداية، ولكن بعد التمعن جيداً بهذا القادم ببدلته البنية وحذائه اللميع، أدركوا أن كسار هو هذا الشيء المختلف..

«السلام عليكم شباب».. قالها كسار لمجموعة من الشباب، بطريقته «العنترية» التي لم تتغير مع المظهر الجديد..

تفرست العيون هذا القادم الذي لولا مشيته لما عرفوه:

«هلا.. كسار .. »؟.. قالها أحد الواقفين بطريقة هي مزيج من ترحيب وسؤال..

لم يتوقف كسار (الجديد) عندهم كما كان يفعل في السابق، بل تابع سيره نحو بيت السيدة هداية.. توقف متردداً للحظات، يراجع فيها الطريقة التي سوف يقنعها بفكرته التي جاء بها.. لكن كسار (القديم) استوقفه وهمس فيه: «أتتاجر بالمرأة يا كسار»؟.. ابتلع كسار الجديد ريقه:«لماذا تسميها متاجرة؟.. اعتبرها إنقاذاً لشاب لديه التزامات لا يعرف كيف يلبيها».. «حتى لو على حساب السيدة التي لم يعد لها في هذه الحياة سوى تلك النافذة؟!.. حتى على حساب المرأة التي وقفت مع شقيقتك يوم كانت مديرة للمدرسة، حين اتهمتها المفتشة الزائرة من مديرية التربية بأنها مثيرة للشغب، وكادت أن تُفصل نهائياً لولا تَدخُّل السيدة هداية»؟.. «أنت تعقد الأمور» ردَّ كسار الجديد.. ثم تابع: «هذه امرأة كبيرة بالسن، وأخذت من الحياة ما يكفيها وجيوبنا مثل قلوبنا فارغة تحتاج إلى من يملؤها».. «بل عقولكم التي مثل جيوبكم».. رد كسار القديم وانبرى خجلاً من تصرفات كسار الجديد الذي حسمت يده الموقف بالطرق على الباب ليأتيه صوت متعب ومتفائل بآن معاً:

«مَن»؟

«أنا كسار».. ولم يخبرها بأنه كسار الجديد..

انفتح الباب ببطء، كان من عادة أهل الدير أن يضعوا

ستارة وراء الباب بمسافة قصيرة حتى لا ينكشف المنزل على الطارق.. أطلَّتْ السيدة هداية وقد استبدلت بفستانها الأسود آخر لونه بني غامق، تلك عادة تتبعها النساء هنا بعد سنوات من ارتدائهن اللون الأسود حداداً على أمواتهن. ثم يبدأن بتغييره بالتدرج، من البني الغامق إلى الكحلي الداكن ثم البني الفاتح.. النساء في هذه المدينة الساهمة الطرف - كفتاة ترسم حلمها فوق رمال البادية - يُطلْنَ جدائلهن ويعتنين بها حتى إذا توفي الزوج قصصنها من جذرها.. قرباناً للأعزاء من الراحلين.

إلى جانب الفستان البني عزَّزت السيدة هداية تفاؤلها الجديد بابتسامة منهكة كما لو أن نحَّاتاً صنع خطاً مائلاً في الصخر.. ثمة ضوء يلوح لها منذ دهر من العتمة.. نظراتها الحادة أرعبت كساراً الجديد، أما كسار القديم فقد اعتصره الألم حزناً، أحس كما لو أن كسارًا القديم سيبيعها غنيمة في المزاد.. بدت له وكأنها تحفة قديمة ونادرة سيتاجر بها في سوق لتهريب الآثار، لذلك كان كسار الجديد مذعوراً، لم يشعر بهذا الهلع حتى وهو يشتري الحشيش.

«يا مرحباً بك كسار»..

قالتها السيدة هداية بودٍّ جعلت كسار القديم هو الذي يرد:

«حيا الله أم منصور.. الناس كلها تتكلم عنكِ.. أصبحتِ مشهورة.. »

قاطعته بحزمها الفطري الذي ولد مع شخصيتها منذ الصغر:

«المهم النتيجة»..

عندما سمع كسار الجديد العبارة الأخيرة خطف المبادرة:

«النتيجة مضمونة يا أم منصور.. الناس كلها معك»..

«ويا ترى سأكون معهم إذا نجحت، أم سأصبح مثل غيري.. ؟»

وجدها كسار فرصة ليُقدمَ على تصرفٍ يُريح به ضميره، فكَّر أن يطرح عليها مشروع تبادل الأصوات مع حماد.

مرة أخرى يخطف كسار الجديد الحديث:

«بصراحة يا أم منصور جئتك بفكرة سأعرضها عليك، وأتمنى أن توافقي عليها»..

لم تقاطعه السيدة هداية بالسؤالِ عن الفكرة، ولكنها منحته أذنها في حركة إصغاء.. فَأكْملَ:

«ما رأيكِ لو تبادلنا الأصوات مع المرشح حماد.. نعطيه

من أصوات أنصارنا، ويعطينا من أصوات أنصاره»؟.. (قال.. وتلاحقت أنفاسه بهلع كما لو أنه خرج للتو من تحت الماء)..

ثمة جدار من لظى الغضب اشتعل فجأة بداخلها.. حاول كسار القديم إطفاءه بيديه العاريتين.. راح يحفن حفنة من تراب الغفران ثم يلقيها بشغف فوق الوهج المستعر.. وحين فشل، استغاث بالجملة التقليدية التي يهرب بها المذنبون عادة:

«يا أم منصور.. لا داعي لكل هذه الثورة.. هي فكرة طرحتها للنقاش وعليك أن تقبلي أو ترفضي».

«كان عليك أن تكون أكثر فهماً لي.. كيف تساومني على أخلاقياتي يا كسار»..

(لم يجب كسار القديم وترك كسار الجديد يغوص في وحل الهزيمة)

«لولا أني كنت أعرف شهامتك يا كسسار لقلت إنك خنتني».. قالت السيدة هداية وهي تحاول أن تغلق جزءاً أكبر من باب البيت المنفتح نصفه، في إشارة إلى رغبتها في إنهاء هذا اللقاء..

فهم كسار هذا الطرد غير المباشر، وحاول الانصراف،

لكن كسار الجديد طلب منه التريث في اتخاذ قرار الهزيمة..

المال يضع غلافاً سميكاً في الجهة التي نطل منها على كرامتنا.. ويدسُّ في الشرايين مادةً تمنح الشعور بالخدر تجاه العبارات القاسية .. ويعيد رسم الشخصية من جديد.. كثيرون ممن أصبحوا أثرياء على عجالة أو بضربة حظ عابرة، بدأوا يتكلمون بهدوء أكثر، ويضعون أيديهم اليسرى في جيوب بناطيل بدلاتهم، ويتركون اليد الأخرى تتحرك حين يتحدثون. أو عندما يلوّحون بساعات ثمينة أمام أنظار أقربائهم الذين لا يزالون فقراء.. كذلك.. ينفضون الغبار العالق بياقة البدلة بالإبهام والسبابة فقط، على عكس ما كانوا يفعلون وهم فقراء حيث ينفضون الغبار بأكفهم مصدرين صوتاً كما الطبل.. يمشون الهوينى يعبئون صدورهم بالهواء حتى تنتفخ، ولكنهم سرعان ما ينكمشون مثل قوقعة داهمها الملح بمجرد أن يقفوا أمام شخصية مهمة.

عاش كسار الجديد هذه الحالة أربعة أيام، كان خلالها يتلقى اتصالات متلاحقة من هاني، مندوب المرشح حماد يستفسر بها عما فعله، لكن كسار كان يمنحه وعوداً لا تعكس حقيقة ما حدث..

شعر كسار القديم بالقلق والحزن معاً.. حاول إقناع كسار الجديد بإعادة مقدم المبلغ الذي تسلّمه من هاني، لكنه تلقى كلمات قاسية منه: «ما علاقتك أنت بالموضوع.. أنت الذي سيدفع الثمن أم أنا؟.. هؤلاء الناس حلال أن تستبيح أموالهم.. هل تستطيع أن تقول لي من أين جاؤوا بها؟.. حماد والله كان فلاحاً، فهل وجد منجماً للذهب وهو يحرث أرضه»؟..

كان المبلغ المدفوع مقدماً عشرين ألف ليرة، والمشكلة التي تواجه كسار الجديد الآن، أنه تصرف بأربعة آلاف ليرة ثمن البدلة مع الحذاء والجورب الجديد، أما ربطة العنق فلديه واحدة كان سحبها من منشر للغسيل حين سافر قبل شهرين إلى حلب، هناك يضعون مناشر الغسيل في الشرفات المنخفضة المطلة على الشارع، وحتى فوق الأرصفة المقابلة للنوافذ الأرضية أحياناً.. وعلى الرغم من أن الوقت كان نهاراً، إلا أن حركة الناس العشوائية سهلت له سحب ربطة العنق.. ثم تذكر أنه لا يملك بدلة، ولأن إعادتها إلى مكانها أصعب، قرر الاحتفاظ بها.

الطريق العائد من «الجراديق» النهرية إلى مركز المدينة، يمر عبر الجسر المعلق، وهوجسر بناه الفرنسيون أثناء احتلالهم لسورية.. ويبدو شكله نحيفاً وقد مُنِعتْ السيارات من المرور فوقه منذ عدة سنوات للحفاظ عليه

من التلف، وهو يشبه جسر سان فرانسيسكو، وقد بدا لأهالي الدير مخيفاً حين انتهى البناؤون منه، لذلك رفضوا أن يسيروا فوقه، فابتكر المهندس الفرنسي الذي صممه طريقة لإقناعهم، بأن جلس هو وعائلته في قارب تحت الجسر مباشرة، وطلب من السيارات أن تمر فوق الجسر.. عندها فقط بدأوا استخدامه بحذر، حتى أَلِفوهُ مع الزمن.. حين تصل إلى منتصف الجسر تشعر أنك معلق بخيوط واهنة، وخصوصاً في الليل، حيث لا تظهر الحبال الحديدية السميكة الممسكة بالأعمدة..

كمن يحاول القبض على الهواء برئتيه، أخذت نور نفساً عميقاً محتجزة في صدرها النسمات التي سحبتها، وقبل أن تطلق سراحها رفعت رأسها نحو السماء وزَفَرتْ بعمقٍ وهي تسألني:

«هل أنت سعيد في غربتك»؟

«الغربة وثيقة ميلاد أخرى.. في المدن البعيدة، تذوب خطواتنا فوق الأرصفة التي لا نعرفها، وتختفي ملامحنا بين مئات الملامح المتعددة، نشعر وكأننا فقاعة صابون تخاف على رقتها من الانفجار.. الناجون من متاهة دروب الغربة هم أولئك الذين يغمضون أعينهم نصف إغماضة.. الاستيقاظ الدائم يحول دون ذوبان ذاتك في عتمة الأجفان.. »

وصلنا إلى منزل موحش، ثمة أشجار تنمو بعشوائية في حديقته الخارجية، واضح أنه لم يتم الاعتناء بها منذ زمان.. أي منذ وفاة صاحبه عصمان بيك في أوائل الثمانينيات، هو رجل غريب الأطوار، كان له جسد ضخم يا نور، رأيته مرة واحدة وقد بلغ من العمر عتياً، ولكن مع ذلك كانت هيبته تسبقه إلى من ينظر إليه، توقفتُ فجأة أمامه كمن اصطدم بعمود نور نازل من السماء.. كان الرجل طويلاً جدًا وكتفاه امتدتا على جانبيه كفرعين من شجرة سنديان، ويرتدي بُرْدةً بيضاء وطربوشاً أحمر ويحمل بيده عكازاً خشبياً لدواعي الوقار أكثر منه للاتكاء عليه.

يتحدث الناس بشغف عن قواه الخارقة، يقولون إنه كان يضع المجيدي[1] بين سبابته وإبهامه ثم يضغط عليه بقوة فتنمسح الكتابة التي فوقه.. وقال آخرون إنهم شاهدوه يمسك حصاناً من لجامه فيمنعه من التقدم خطوة واحدة..

تجاوزنا المنزل باتجاه الفرع الثاني من النهر، كانت المقهى التي تسمى باسمه (مقهى عصمان بيك) ما تزال تغص بروادها.. انعطفنا أنا ونور يميناً، أصبح النهر على يميننا، ومنزل صديقي مصطفى على يسارنا.. من كل زوايا الذاكرة هطلت الصور القديمة.. الصداقات الأولى يا نور تشغل حيزاً أبدياً من أرواحنا.

1 عملة عثمانية فضية

تركنا النهر وسرنا باتجاه الداخل، مررنا بجانب سينما القاهرة، كانت شيخوخة الجدران تحكي زمناً من مجد قديم توقف هنا طويلاً، ثم تركها كامرأة عجوز كانت ذات يوم مقصد العشاق.. بقايا ملصقاتٍ لأفلام قديمة، وباب من قضبان حديدية مغلقة.. وعَبْرةٌ باغتت صوتي حين مررنا بجانب دير الكاثوليك المقابل لمقهى «الروضة».. كان طيف رولا يمر بخشوع بعد قداس يوم الأحد.. وكنت المسلم الوحيد الذي يقترب بشغف من القاعة ليستمع إلى التراتيل المنسابة بحزن روحاني يشبه أنين الغرباء.

لاحت التفاتة بمعنى التساؤل من نور، حين لمحتني أغادر بخيالي أبعد من المكان الذي تباطأت فيه قدماي، فأجبتها:

هي حكاية أخرى يا نور، وعدتك أن أحكيها لك في الرواية القادمة.

****

البحث عن قرار

الحمائم تتقافز حول كسار الذي لم يلق لها بالاً هذه المرة، صارت تحوم حوله وكأنها تتحرش به ليهتم بها، رشاها بقليل من حبات الحنطة التي ألقاها لها بملل، لدرجة أنه لم يهتم كثيراً بطائر غريب وقف على حافة القفص، وكان قبل ذلك يحتال عليه بشتى الطرق لحثه على النزول إلى أرض السطح، كأن يلقي له بحبات القمح منتهزاً جوعه، ثم ينقض عليه كصقر رُفع عن عينيه الغطاء فجأة..

مذ صعد إلى السطح قبل ساعتين وهو ساهم الطرف، كان ما يزال يرتدي بدلته الجديدة. منذ يومين وهو يبحث عن قرار.بدا كسار الجديد مهزوماً ومنكسراً.. وبدا كسار

القديم حزيناً يعتصره ألم موجع:

«لم تكن يوماً هكذا.. كيف تسمح لك رجولتك المتاجرة بامرأة.. لازال الموضوع بأوله، لا زال هناك متسع من الوقت لتسترد كرامتك»..

أصغى كسار الجديد باهتمام هذه المرة.. وأطرق رأسه :

«وماذا عن المبلغ الذي تصرفتُ به»؟

«عشرة من طيور (البايملي والأورفلي والعنابي والجخجرلي)، التي لديك، تساوي هذا المبلغ»..

«ماذا تشرب»؟

قال نادل المقهى الخاص بمربي الحمام لكسار بعد أن استقر على كرسي صغير من القش..

الدخان في هذا المكان أشبه بسحابة وضعت في صندوق أصغر من حجمها.. الوجوه تبدو مشوّشةً وبالكاد ترى الجالس أمامك في هذا المقهى الصغير:

«ليس من عاداتك بيع طيورك يا كسار».. قال صبحي الذي يلقبونه صبّوح ثم انعطف على أذن كسار:

«هل تحتاج إلى شيء.. أنا حاضر»..

«لا، أبدًا .. أعرف أنك شهم، ولكن أريد أن أجدد طيوري بأنواع أخرى»..

اضطراب يديه وارتباك عينيه أوحى لصبّوح بأن صديقه لا يقول الحقيقة، وعلى الرغم من عدم حاجته إلى الطيور:

«اشتريتها منك يا كسار وبالمبلغ الذي تطلبه»..

انهزم كسار الجديد.. تراجع إلى الوراء.. ثم رويداً رويداً بدأ يتلاشى كورقة خريفية جرفها تيار النهر إلى البعيد قبل أن تذوب في مداه.

طرق كسار القديم الباب الحديدي الأسود.. أحسَّ كأنه يسمع صوت السيدة هداية لأول مرة.أعاد ترتيب فرائصه، حاول أن يقف بثبات، ثم استجمع بقايا صوته في حنجرته:

«أنا يا أم منصور»..

صَمْتٌ وقورٌ ساد للحظات.. الخطوات التي توقفت وراء الباب لم يعقبها صوت فتح المزلاج.. أعاد كسار المحاولة:

«أم منصور.. أعرف أنك غاضبة مني.. ما عاش اللي يزعلك يا أم منصور»..

السيدة هداية لديها خبرة في اكتشاف نبرة الصدق في الأصوات، مُذْ كانت تحقق مع الطالبات في المدرسة، حين تصدر عنهن مشكلة ما.. لذلك استشعرتْ الصدق في صوت كسار ففتحت الباب:

«كنت على ثقة بشهامتك»..

«تربيتك يا أم منصور».

تصافحت النظرات بصفاء .. كانت الشمس قد بدأت تلملمِ ضفائرها سائرة ببطء نحو غرب المدينة.. وشيئاً فشيئاً، غابت الشمس.. وأشرق وجه كسار.

****

تحالف الأنداد

أشجار الغَرَب التي تنمو وحدها دون فضل من البشر على ضفتي النهر، بدت في تلك الساعة الليلية مثل جنيات ترقب الطريق بأغصانٍ بالكاد يحركها هواء ثقيل الهبوب.. ثمة سمكة أغراها ضوء منبعث من نادي اليقظة في حي «الحَويْقة»، وهو حي يشبه ساكنوه إلى حد بعيد ساكني حي الكجلان، بقوتهم وشجاعتهم، وبتفاصيل كثيرة من حياتهم اليومية.

قطع كسار الجسر العتيق الواصل بين مقهى عصمان بيك والحويقة، كان جبار في استقباله عند دار المعلمات، كانوا يسمونه «جبار الحويقة»، شاب في الخامسة والعشرين

من عمره، يدخل بطولات للملاكمة، ولكنه لم يفز بإحداها، متوسط القامة، شديد البأس، عيناه جامدتان لا تنبئان عن حالة صاحبهما في الغضب أو الفرح.. لم يكن مدخناً، وعلى عكس أخيه الأكبر ضرغام فإنه لم يدخل السجن ولا مرة. خاض الكثير من المشاجرات، ومن عادته أن يترك «ذكرى» على وجه أو جسد خصمه، كانت تربطه بكسار علاقة حسنة لكنها غير عميقة، كلاهما يحسب للآخر حساباً:

«أهلا كسار، تأخرت عن موعدك، كدت أغادر»؟

«جئت عن طريق الساحة العامة، وعلقت بالزحمة.. لو أعرف أن الأمر هكذا لجئتك عن طريق النهر»..

«أين تحب أن نجلس، في البيت أم في المقهى»؟

التفتَ روادُ مقهى عصمان بيك بحذر شديد إليهما وهما يطلبان من النادل وضع طاولة على رصيف المقهى، كان الرصيف مشغولاً عن آخره، ولكن هذا لا يعني لهما شيئاً.. لذلك لم يمانع أحد من الجالسين على طاولات الرصيف من تضييق فسحة جلوسه، كي تتربع الطاولة الجديدة في المكان الذي اختاره قطبا المدينة:

«شَغلتَ بالي يا كسار، منذ أن أرسلتَ رائداً ليخبرني

بأنك تطلب لقائي، وأنا أفكر في الأمر»؟

«معقول، جبار ينشغل باله.. »؟

«إن شاء الله، خير»

«أم منصور يا جبار.. »

كأنَّ بهتاناً جمّد وجهه:

«تُقصد هداية التي رشحت نفسها لمجلس الشعب.. يا أخي يقولون إنها مجنونة»..

«تعرف يا جبار لو أن أحداً غيرك قال هذا الكلام عنها لتشاجرتُ معه.. »

«يا أخي أنا لم أقل هذا الكلام عنها بل سمعته».

«ومن أين سمعته»؟

«من مبنى المحافظة حين جاءت لتسجل اسمها مع المرشحين»..

«لا يا جبار، هذا كلام فارغ.. السيدة هداية كانت مديرة مدرسة، ولكن ظروفها بعد وفاة زوجها وابنها وغياب الابن الآخر، وفقدان ابنتها ملكة لعقلها، جعل الناس يظنون بها الجنون».

«لا تؤاخذني يا كسار.. حسناً.. نعود لموضوعنا..»

«السيدة هداية يا جبار لازم تنجح»..

«ولماذا لازم»؟..

«هذه امرأة تمثل الناس البسطاء مثلنا.. لا واسطة لديها، ولا جبهة تدعمها.. وأنت تعرف أن أكثر الذين ينجحون في الانتخابات، لا نرى وجوههم بمجرد أن يصلوا إلى الشام.. كثير من المرشحين يا جبار مثلهم مثل الأخطبوط، لديهم أذرع طويلة وممتدة في كل مكان إلا إلى البسطاء أمثالنا».

صَمَتَ كسار قليلاً.. استغرب كيف خرج هذا الكلام المنمق منه.. ولم يكن جبار أقل استغراباً منه، وبدا مشجعاً للفكرة:

«فعلاً معك حق.. أُطلب يا كسار ما تشاء وأنا وكل شلَّة الحويقة جاهزون».

****

صائد السمك الصغير

«هذه المدينة مثل طابع بريد قديم، تحتفظ به بحرص شديد، ولكنك لا تستعمله»..

قلت لنور التي بدا أنها احتاجت إلى شرح أكثر:

«هذه المدينة يا نور حنونة مثل أم يعتصرها الأسى لحظة إيقاظ أبنائها للذهاب إلى المدرسة.. هناك الكثير من الفرص التي تذهب للأغراب، بينما أهل المدينة آخر من يستفيد منها.. حتى في حقول النفط، فإن أكثر الذين أثْروا هم المقاولون الذين جاءوا من المدن الأخرى».

«لذلك فهي طابع نادر بجماله لكنه لا يستعمل».. ردت

نور وهي تُصلح من حجابها الأزرق، وتلقي نظرة على منزل رولا الذي مررنا بجانبه في طريق العودة.. وتنسج بعينيها استفساراً صامتاً عن سبب حزني المباغت..

«كانت الدروب يومها غارقة بعتمتها.. وكنا في سنوات صبانا الأولى نضيئها بقناديل القِلوب الصغيرة.. كنت أقترب بوجل من تلك النافذة.. أَحفِنُ بضعة أوهام من عينيها.. ثم أمضي خجولاً كصائد السمك الصغير..».

أوقفتني دمعة اعتلَتْ بغتةً صوتي، حين وقعت عيناي على الركن الذي كان يقف فيه أصدقاء الأمس، فاستغثت بآخر الحروف المتراكمة في حنجرتي:

«كل ما أخشاه يا نور أن يمضي زمان ولمّا أحفن قبضةً من ريح الأصدقاء.. كلهم مضوا.. حتى من بقي منهم له قلب من جليد».

هذا الركن دخلٍ تاريخ المدينة يا نور.. استخدمه المؤيدون للسيدة هداية مقراً لحملتهم الانتخابية..

وقف نبيل الذي يلقبونه «بلبل» وسط المجموعة بصوته الخشن كالطواحين التي كانت تجرها الأحصنة في المدينة لطحن الملح الصخري، وطلب من المجموع أن يرددوا وراءه:

« لا سيارة ولا حنتور.. لازم تنجح أم منصور.. يا حماد .. باي .. باي وسلامات، لازم ننجح نكايات».

وتشتعل الساحة.. بل حتى كاميرا التلفزيون الرسمي جاءت لتغطية الحدث. يزداد الحضور بشكل لافت.. مثقفون وأميّون.. متدينون ويساريون وحشاشون.. حتى النساء خرجن يؤازرن بالزغاريد، لكنهن اكتفين بالوقوف على عتبات أبواب البيوت ولم ينزلن إلى وسط الشارع..

لمح كسارُ الرجلَ نفسه الذي رآه في المرة السابقة، وعلى الرغم من أن الوقت ليلاً إلا أنه لا يزال يضع النظارة السوداء على عينيه، ويتنقل بين الحضور.. هذه المرة لم يهرب من كسار بل تقدم نحوه بخطوات حذرة، صافحه، ولكي يعلو صوته فوق صوت الهتاف الصاخب، اقترب كثيرا من أذن كسار:

«ممكن أتحدث معك جانباً»؟

استغرب كسار الطلب وهو الذي كان يستعد لطرد هذا الرجل من المكان، لكنه سيطر بسرعة على مزاجه الحاد:

«تفضل»..

في الشارع الموازي لشارع السيدة هداية، يحل ظلام

عقيم من أي ضوء.. سار الاثنان، كسار والرجل الغريب ببطء.. تحدث الرجل بنبرة مضطربة:

«لا أعرف كيف أبدأ معك يا كسار»؟

«.. ..»!

«أنت تعرف أن هذه الانتخابات من حظ الكبار، ولا يصمد فيها إلا الشخص المتمكن مادياً، أو صاحب النفوذ أي من له ظهر.. وهداية لا تمتلك لا هذا ولا ذاك»..

استفاق كسار الجديد مرة أخرى في داخله، لكنه هذه المرة خرج بسرعة مقموعًا بسطوة كسار القديم الذي كبح جماحهُ فَذابَ كسار الجديد في عتمة الشارع:

«حسناً، وما المطلوب»؟

«هداية كما ترى تعوم في بحر لا تجيد السباحة فيه.. وترتدي ثوباً سياسياً فضفاضاً عليها، وهي بعملها هذا تخرِّب الانتخابات على غيرها من الكبار»..

«وماذا بعد»؟

«هداية يجب أن تكف عن هذه المهزلة يا كسار»؟

تلاحقت الأفكار يزيح بعضها بعضاً في رأس كسار..

هل يسأله عن المقابل؟ هل يسأله من أنت؟.. هل يوجه لكمة إلى وجهه يطيح بها نظارته الفارهة؟.. لكنه مرة أخرى يسيطر على عصبيته:

«الأمر ليس بيدي يا أخ.. »

لم يهمه أن يعرف اسمه، بدا له المشهد أقرب إلى مقطع من فيلم مزَّقت الرقابة أجزاءه حتى أصبحت بدايته لا علاقة لها بنهايته..

«بل بيدك يا كسار، أنت من جمع هذه الحشود، وأنت من يستطيع فضَّها».

«هذه الحشود لم تأت لأجلي، إنها مقتنعة بأن السيدة هداية سوف تستميت لتوفير متطلبات حياتهم بدءاً من الخبز وحتى الحشيش»..

«ها.. أنت قلتها.. سوف تستميت.. أي سوف تثيرٍ البلبلة والفوضى. ونحن بغنى عن ذلك.. (ثم توقف قليلا وهمس كمن يخصم الحوار) «نحن في وضع مواجهة مع العدو، وعلينا أن نكون متماسكين»..

تلك هي الشماعة التي يصمت لأجلها الآخرون.. وتلك هي صخرة الوهم التي توضع في طريق الإصلاح..

لم يفهم كسار كثيراً مما قاله الرجل، لكنه أحس بجدية الموقف، فحاول الهروب منه نهائياً:

«أنا لا علاقة لي بهذه الحملة لا من قريب ولا من بعيد، والموضوع كله عند السيلة هداية»..

الضوء الشحيح في الشارع لم يكشف معنى تلك النظرة التي كانت تختلج في عيني السيلة هداية، وهي تلوح للجموع بإيماءات الثقة.

عينان داكنتان وقلب يضخ دماء متعبة في الشرايين، وحلم أخير يمر في مخيلتها فتستوقفه.. ترجوه أن يمكث، تعلق على بوابة القلب قنديلاً جديداً فيه القليل من زيت التفاؤل، ترسم في الهواء عصافير من ورق ولكنها لا تتمكن من تلوينها..

إلى أين يفضي هذا الدرب؟.. سألت السيلة هداية نفسها، وهي ترى الحشود تتناسل كخلية شرهة.. حملت مجموعةٌ من الشباب «بلبل» على الأكتاف، فارتفعت وتيرة الحماس.

صاحب الفرن تبرع بطبع خمسين صورةٍ للسيلة هداية، هذا العدد من الصور لا يساوي شيئاً البتة أمام صور المرشحين الآخرين الذين احتلت صورهم أعمدة الكهرباء

الخشبية والمعدنية، وتسلقت الجدران، وبعضها غطى حتى واجهة السينما بدل ملصقات الإعلان عن الفيلم.. اللافتة الوحيدة تلك التي قدَّتها من كيس طحين أبيض، كادت أن تسقط عن الجدار بسبب ازدحام المتجمهرين..

كانت هذه الاحتفالية تتكرر يومياً، باستثناء يوم الجمعة، حيث يفضل أهل دير الزور أن يذهبوا إلى «الشول»[1].. هناك في البر الشاسع فضاء آخر من الانعتاق، لكنهم في الجمعة الأخيرة السابقة ليوم الانتخابات، قرر كسار ومجموعته المكوث في المدينة.

ضم الاجتماع الذي ترأسه كسار شخصيات على درجة عالية من التعليم والثقافة، لم يمانعوا أن يتصدر كسار الجلسة التي جرت في بيت فواز.. بيت مبني على الطراز القديم، وهو البيت الوحيد في الحي الذي ظل قائماً على جدرانه الطينية، وسقفه الخشبي.. كان والد فواز من مربي الحمام، قليل الكلام رث الثياب لا يمكن أن تراه من دون سيجارة معلقة على جانب فمه، حتى وهو يردُّ السلام.. تزوج من امرأة ثرية لكنها انغمست في حياة الفقر التي أحاطت بها بعد فشل زوجها في عمله كصاحب ورشة للنجارة، حيث لم يتمكن من تطوير محله عقب دخول المناشر الحديثة، فتحول محله إلى تصليح للأبواب الخشبية والكراسي

1 البرية

المكسورة، وعلى أبعد تقدير كان يصنع حصالات خشبية.. بقايا الثراء لا تزال تطلّ بخجل على وجه زوجته الشاحب. واضح أن هذا الرأس الأنثوي المحتفظ بعنجهية مهزومة، لا يليق بهذه الثياب التي ترتديها أم فواز..

بعد إفلاس الأب ازداد ولعه بالحمام، صار يقضي جلّ وقته على سطح المنزل الطيني الذي يتحرك كجسر معلق تحت وطأة أقدامه.. كان دائم الشجار مع ابنه فواز، وحين نصحه أحد المشايخ بمعاملته بطريقتي الترهيب والترغيب، ضربه على حسب الطريقة الأولى فكسر له إصبعه، وأحضر له «كشة» حمام جديدة على سبيل الترغيب: «صدقني يا شيخنا أردت أن أصنع منه رجلا، فأحضرت له أغلى أنواع الحمام»..

فريق كسار اجتمع في الغرفة الكبيرة التي تصل إليها عبر باحة يتوسطها حوض من الزرع بُنِيَ فوق بئرٍ قديمة..

دخل فواز حاملا إبريق الشاي، سكب الكأس الأولى فاعترض الجميع لأن الشاي لم يكن غامقاً:

«دعه حتى يتخدّر [1] يا فواز» ..

كسار اتخذ من فوره دوراً قيادياً:

1 يصبح غامقًا.

«اعذروني يا جماعة.. طبعاً معظمكم أفهم مني، وأكثركم متخرج في الجامعات، وأنا بالكاد حصلت على الابتدائية، وأود أن أشكركم على ثقتكم بي».

«ما الذي يتوجب علينا فعله الآن»؟.. قال نضال وهو يذيب ثلاث ملاعق مثقلة بالسكر، في كأس الشاي..

بدا راشد وكأنه ينتظر ثغرة في الحديث المسترسل بين المجموعة لينفذ منها مسرعاً إلى منتصف الحوار، كان راشد مُنظِّراً بادعاء، ومتحدثاً يسارياً يتبجح بالاتحاد السوفييتي -قبل انهياره- يعتمر قبعة مثل قبعة جيفارا ويربي لحية غير مشذبة البتة، يتداخل معها شارباه، فلا تظهر شفاهه حين يتحدث.. يحرك يداه باستعراضية منبرية.. يمسح يديه ببنطال الجينز المهترئ عند الركبتين:

« السيدة هداية يا رفاق، امرأة ثورية.. أرى أن نجعل اللافتات حمراء وإطارات الصور حمراء وأن نشتري لها شالاً أحمر تضعه حول عنقها حين تلتقي بناخبيها»..

كاد موسى الذي يجلس قبالته أن ينفجر غيظاً.. شاب في العشرين من عمره، يرتدي الجلابية التي تعلو كعبيه بعدة سنتمترات، ترك لحيته تنساب لما تحت عنقه، بينما حفَّ شاربه.. عدّل من عمامته البيضاء المنسدلة على كتفيه، واستل بحركة لا إرادية المسواك الذي في جيب جلابيته،

ثم أعاده ليستبدله بسبحة طويلة، مفرغاً شحنة غضبه في حباتها:

«يا أخ راشد، السيدة هداية امرأة فاضلة، ومربية أجيال، وليس لها علاقة بالثورية ولا نريد أن تستغلوها لصالح اليسار».

انتفض راشد وكأنه للتو يحس بوجود الشيخ موسى في المكان:

«انتبه لكلامك جيداً يا شيخ موسى، فكونها امرأة فاضلة لا يعني أن النساء الشيوعيات فلتانات».

لم تعد حبات السبحة تستوعب شحن الغضب التي يفرغها موسى فيها، فراحت تتناطح بسرعة محدثة صوت فرقعة مرتفع:

«أنتم الشيوعيين، لا شغل لكم سوى أن تهيموا بصوت الشيخ إمام وهو يغني لأحمد فؤاد نجم، «سلام يا أرضنا يا غيطان الفلاحين».. وعندما طبقتم النظرية على الواقع فشلتم وأرهقتم الناس فقراً على فقر.. أفسدتم النساء.. اجتماعاتكم مختلطة، وبناتكم يرتدين ملابس شبيهة بملابس الرجال.. وتستغلون المراهقة الفكرية لدى الشباب، لتستدرجوهم إلى أوكاركم الحمراء»..

«أنتم تسيسون الدين، وتكيفونه على هواكم، و.. »

«يا شباب.. يا شباب.. رجاء أن تكفوا عن هذا النقاش، فالسيدة هداية ملك للوطن السوري كله وليس لأحزاب وتيارات يمينية ويسارية»..

صرخ مجد فيهما قبل أن يُسكته أيضاً هلال الذي تجاوز الأربعين من عمره:

«بأي حق تقول الوطن السوري، أنتم القوميين السوريين مفهومكم الجغرافي ضيق ومحدود الأفق»..

«يعني أنتم القوميين العرب مخكم أوسع؟!..

«نعم تفكيرنا أوسع من هلالكم الخصيب»..

يضحك مجد ضحكة باهتة بما يشبه السخرية:

«هات لي مثالاً واحداً على نجاح وحدة عربية».

«يا جماعة تتحدثون بكلام لا نفهمه.. خلونا بموضوع أم منصور».

صرخ كسار الذي بدا وعيه البسيط محايداً عما يدور من نقاشات في تلك الجلسة التي تحولت إلى ما يشبه مؤتمر لأحزاب غير معلن.

«الشاي تخدر».. قالها فواز بلكنته الديرية العميقة وهو ممسك بإبريق شاي قديم كساه «الشّحوار» من أسفله.

«أنا لم أفهم ما كنتم تقولونه، ولكن من الواضح أن كل واحد منكم يريد سحب أم منصور إلى طرفه.. وبهذه الطريقة لن ننجح في عملنا»..

قال كسار وهو يقف في منتصف الغرفة مهدداً:

«إذا كانت الأمور ستسير بهذه الطريقة، فأنا منسحب»..

هدّأتْ المجموعةُ من روع كسار الذي عاد إلى مكانه مشترطاً عليهم:

«لا نريد كلاماً في السياسة».

المدينة رغم وقوعها على أطراف الخريطة، إلا أن ثمة حراكاً سياسياً قوياً فيها، تغمرها كل ألوان الطيف السياسي، لكنه يكاد يكون محدوداً.

لم تكن الأحزاب اليسارية في المدينة فاعلة، ولا مقنعة، فقلة من الشيوعيين الذين ينتمي إليهم راشد، يظهرون بشكل بوهيمي، يستمتعون بالفقر ويكرّسون فيه فكراً بروليتارياً خيالياً، لذلك لا يحاولون التخلص من فقرهم

بتحسين أوضاعهم المادية.. كان أحد أفراد هذه المجموعة، وهو قادم من قرية «الموحسن»، يستأجر غرفة متهالكة الجدران والسقف، وشاهد ذات ليلة عنكبوتاً في إحدى زوايا الغرفة، فخطرت له فكرة غريبة، إذ راح ينقل هذا العنكبوت كل مرة إلى زاوية من زوايا الغرفة، حتى امتلأت الأسقف والجدران بالأعشاشٍ التي حولت المكان إلى ركن مرعب. كان الرجل مستمتعاً بالفوضى الموجودة، بل يتبجح بها، ولم يغضب إلا عندما انسكب فنجان القهوة فوق كتاب «كيف سقينا الفولاذ» للكاتب الروسي نيكولاي أستروفسكي.

«صحيح يا جماعة، كلام كسار صحيح، لا نريد أن نسيّس قضية السيدة هداية، بل أن نتركها كما هي قضية شعبية.. علينا أن نشتغل بشكل صحيح للسيدة هداية، يجب أن نضع خطة للحصول على أكبر قدر ممكن من الأصوات لها»..

قال أمين وهو رجل مستقل لا تعني له الأحزاب شيئًا، وعزَّز رأيه بوجهة نظر:

«مشكلتنا ستكون في أصوات أهل الريف، فهؤلاء لا يعرفون السيدة هداية، ثم إنهم سوف يعطون أصواتهم لحماد لاعتبارات عشائرية»..

هز الجميع رؤوسهم بالتأييد.. رفع موسى يده في إشارة لإعطائه المجال بالكلام:

«ما رأيكم لو تحالفنا مع حماد أو عبدالفتاح»؟

كمن وخزه دبوس في خاصرته، انتفض جسد كسار.. وتردَّد، هل يخبرهم بما حصل له مع السيدة هداية بهذا الشأن أم يدعهم يجربون.؟ ولكنه حين وجد شبه إجماع على الرأي قرر:

«بصراحة يا جماعة لا أنصحكم باتباع هذه الطريقة.. »

قاطعه راشد:

«لماذا.. ؟ نظن أن هذا هو الحل الأفضل».

ساورت موسى رغبة في التهكم على راشد:

«يعني حتى في هذه تريدها اشتراكية»؟

وقبل أن يرد راشد صاح أمين:

«يا جماعة رجاء لا نريد أن نعود إلى الانشقاق»..

«حسناً.. ولكن نريد أن نعرف لماذا يعارض كسار فكرة التحالف مع المرشحَين .. هما يعطياننا الأصوات ونحن نعطيهما»..

المصارحة الكاملة ستحرج كسار، لذلك قرر الاختصار:

«هذه الفكرة خطرت لي منذ البداية، وفاتحتُ السيدة هداية بالموضوع، لكنها عارضت معارضة شديدة، لدرجة أنها غضبت مني وكادت أن تقاطعني»..

«إذًا علينا أن نسير في اتجاه الدعاية».. قال أمين وهو يبحث في عيون الحاضرين عن إجابة لم تتأخر بل جاءت سريعة من موسى:

«الدعاية أخ أمين تحتاج إلى مال، والحاضرون في هذا الاجتماع إمكانياتهم بسيطة»..

«محلولة».. قال أمين : «ما رأيكم أن نجمع تبرعات من الميسورين في حيّنا»؟

ولأول مرة منذ بداية الاجتماع يتفقون على رأي واحد:

أقترح أن يتولى الشيخ موسى جمع التبرعات..

«لا يا جماعة.. مشكلة كبيرة أن يجمع الشيوخ التبرعات.. أخشى أن تفسر بشكل آخر».وأومأ بسبحته نحو أمين:

«أنت أنسب شخص لهذه المهمة».

طلب كسار منهم التريث قبل أن يقرروا بشكل أكيد:

«لا تنسوا يا شباب المقلب الذي عمله صياح بالميسورين من أهل الحي قبل سنتين»

«مقلب»؟!.. سؤال شفهي بدا في عيون الحاضرين:

«هل نسيتم حين قام صياح بجمع تبرعات من أجل تشكيل فريق كرة قدم، ثم أخذها وطار بها إلى لبنان ليمضي علة شهور هناك»..

****

العطف الدافئ

المدينة هي الوحيدة تقريباً التي تنام عند الظهيرة.. تبدو الشوارع وكأن ساكنيها هجروها.. حتى الطيور في هذا الجو الحار تخشى الظهور، وباستثناء مجموعات من الشبان المتوجهين إلى النهر، المكان يبدو أشبه بكف عجوز لم يصافحها أحد منذ زمان.

في غرفة طينية باردة، جدرانها سميكة جداً يحول دون تسلل سياط الشمس إلى الداخل، جلس الشيخ موسى يعد النقود التي جمعها أمين من التبرعات لأجل الحملة الانتخابية، ثم أخرج من جيبه خمسمئة ليرة وأضافها إلى المبلغ، لكن «أمين» أفهمه أن لا داعي لذلك:

«لن نحتاج المبلغ كله أصلاً»..

«ها.. لماذا»؟

«لأن الخطاطين رفضوا أخذ فرنك واحد على اللافتات التي طبعوها لنا»..

«إذاً علينا إما أن نعيد المبلغ لأصحابه أو أن نسلمه للسيدة هداية».

«أظن أن الحل الثاني هو الأجدى.. لأن المتبرعين لن يقبلوا استرداد ما دفعوه»..

الباب الحديدي الأسود يكاد يتلظى من حر الصيف، ولأن الجرس معطل منذ عشرات السنين، فقد لسعت الحرارة قبضة الشيخ موسى وهو يطرق الباب..

«مَن»؟

«أنا يا أم منصور، أنا الشيخ موسى»..

اعترضت السيدة هداية على أخذ المبلغ، لكن فكرة أومضت فجأة في رأسها جعلها تتسلّم المال.

مقهى أصحاب الحمام كان مكتظاً كعادته حين فوجئ الرواد بالسيدة هداية تفتح الباب المؤطر بخشب متفسخ

حول ألواح من النايلون المقوى بدلاً من الزجاج.. الدخان الكثيف في المكان لم يتح للرواد، في البداية، تبينٍ الزائر، لكنهم بعد أن أيقنوا بأنها أم منصور، هبوا جميعاً واقفين يرحبون بها بأصواتهم العريضة.. ألقت السيدة هداية عليهم تحية برفع اليدٍ كزعيم شعبي، ثم قفز النادل إلى منتصف المقهى صائحاً:

«يا جماعة، كل المشروبات اليوم على حساب السيدة هداية»..

مضت السيدة هداية مودعة بهتافات صاخبة، واستقلت سيارة أجرة:

«إلى المستشفى الوطني لو سمحت»..

قالت للسائق ثم راحت تعد ما تبقى لها من مال التبرعات.

«أريد أن تعرفيني إلى المرضى الذين أَقْعدَهمْ المرض عن العمل ولديهم أبناء صغار»..

همست السيدة هداية في أذن الممرضة، التي عرفتها فرحبت بها، قبل أن يتحلق الناس حولها.

اصطحبتها الممرِّضة إلى جناح يتسع لستة أسرّة ،

وأشارت إلى سريرين متقابلين، توجهت السيدة هداية إليهما، ودست عطفها الدافئ في كفيهما ثم انتقلت إلى جناح آخر.

****

الغياب الثاني

عيونٍ تسري فيها الحياة بقلق جديد.. قلوب تنبض همساً بعبارات مبهمة.. الأقدام تأخذ الأجساد التي تحملها إلى صباح يوم آخر غير الذي اعتادته المدينة في انتخاباتها السابقة.

المدارس تحولت اليوم إلى مراكز اقتراعٍ، وعلى باب مدرسة يوسف العظمة وقف كسار مضطربا، بينما توزعت المجموعة الأخرى على بقية المراكز.. أما السيدة هداية فلم تكن قدماها تسعفانها على السير طويلاً، فاستقلت سيارة أجرة للتنقل بين المراكز الانتخابية، وفي أحيان كثيرة كانت تضطر إلى أن تخرجَ يدها من السيارة لتحيي الجمهور الذي

يتجمهر حولها مصفقاً بقوة لم يحظ بها أي من المرشحين الآخرين الذين بدوا وكأنهم غرباء..

إبراهيم هو الشخص الوحيد من حي الكجلان الذي كان يعمل لصالح المرشح حماد، ويحاول أن يستدرج الناخبين إلى جانبه بشتى المغريات. قلة من الأشخاص تبعوه، بينما اعتبرها آخرون خيانة بحق السيدة هداية.

يوم حاسم ومفصلي في حياتها.. يوم أشبه بطريقين، أحدهما يؤدي إلى بوابة الشمس، والآخر قد ينطفئ كشمعة في يد عجوز شحيح البصر..

السيدة هداية لا تعرف تحالفات اللحظات الأخيرة في الانتخابات، ولم يلقنها الوقت خداع السياسة.. لذلك بدت بريئة، ومحفوفة بالأذى ، كالزهور التي تنمو فوق الصبار..

يمر الوقت على هون.. عقارب الدهر مربوطة بخيط رفيع إلى الأعصاب.. تحركات سريعة وغامضة بين المراكز الانتخابية، ورجال بنظارات سوداء، وآخرٍون يحملون حقائب جلدية منتفخة، يخرجون منها رزماً من النقود، وحافلات تقل قرويين من الأرياف، وسيارات فارهة تمر على عجل وتتوقف للحظات أمام المراكز يهرع إليها مندوب صاحب الحملة، يحافظ على مسافة بينه وبين

النافذة، يقف منحنياً.. يلقي بضع كلمات في أذن الرجل ذي الملامح الجادة.. يكتفي الرجل بهز رأسه وتظل يداه هادئتان بلا تعب..

الوقت يا نور كان يمر آنذاك على هون.. يسيل ببطء في عروق السيدة هداية..

مساءً سوف تُعلَن النتائج.. مجرد أوراقٍ في صندوق مرسوم عليها إشارة صح، بجانب اسمها، سوفَ تنتشلها من أحزانها وعزلتها كقشة تسحب فراشة من منتصف نهر غاضب.. إشارة بقلم ما، أياً كان لونه، سينهي هذه المعاناة.. وسيفتح نوافذ زرقاء أمامها، ويزرع رمال حياتها جنائن أمل آخر، وسوف تهبها الحياة دفاتر بصفحات بيضاء تكتبُ فوقها من جديد قصة أخرى لأيامها غير تلك التي مضت آخذة معها كل شيء، وتركت لها ابنتها ملكة وندوباً غائرة في الروح..

حين أعلنوا يا نور عن إغلاق مراكز الاقتراع، توهجت الدقائق في عيون الناس كجمرة غضى في كف شاعر أعيته ولادة القصيدة.. كان الوجوم يتمدد على وجوه أهل الحي، الذين أحاطوا بالسيدة هداية في انتظار كسار كي يأتي إليهم بالنتيجة.

ثمة نجمات بدت على البعد كقطرات الماء المتساقط من شعر رولا حين يرشقها المطر.. نظرتْ السيدة هداية إلى

أفق ناءٍ.. بعيد.. مدَّت يدها كي تقطف نجمة.. أطل كسار علىً البعد.. لم تكن الإضاءة البخيلة في الشارع تتيح قراءة الكلمات التي ستقولها عيناه.. ولكنه حين دنا أكثر.. تسمرت نبضات الوقت في ثوانيها..

أرجعت السيدة هداية كفها من دون أن تقطف نجمة، ثم غابت وراء الباب الحديدي الأسود.

من يومها لم يرها أحد، إلى أن جاء ذاك اليوم الذيٍ طرق فيه كسار الباب عليها، فأطلت ملكة بهدوء، واضعة إصبعها على فمها بإشارة «اصمت»:

«أرجوك لا تزعجها إنها نائمة منذ أسبوع»..

****

هنا امرأة تتحدى مصيرها الموشوم على شوارع المدينة، وجدران بيوتها العتيقة، بلافتة مصنوعة من قماش كيس طحين مكتوب عليها إنها «مرشحتكم للانتخابات». لكنها تفوز بالموت أخيرا، في إشارة مفتوحة الدلالات على موت الحلم الذي رسمته المدينة كلها، وفقا لخطى امرأة رفضت أن تشرب من نهر الجنون حتى وإن انكوت بل احترقت بجمر النكايات!

سعدية مفرح: شاعرة وناقدة من الكويت

رغم صغر حجمها، يمكن اعتبار رواية «جمر النكايات» ملحمة اجتماعية أبطالها فقراء، ولكنهم أغنياء بقناعات ومبادئ دافعوا عنها بشجاعة نادرة. ثم إن ما يعزز الملحمي فيها هي تلك النفحة الشعرية التي تنتصر للتكثيف اللغوي على الإطناب والثرثرة. الأمر الذي يجعل قارئها مساهما في إنتاج خطاباتها الغائبة، وفي توسيم دلالاتها.

د. عبد السلام المساوي: ناقد وأكاديمي من المغرب

جمر النكايات: تتميز بأسلوب سرد موشوم بالصور الشعرية المبثوثة في الرواية وهي تترك أثرا لا ينسى في القلب والذهن معا.

أ.د.صبري مسلم: أكاديمي وناقد من العراق

رواية تأسر القارئ منذ أن يتورط بقراءة الصفحة الأولى منها فلا يستطيع الفكاك من سطوة عذوبتها وكوابيسها وتلاهث أحداثها فيعود مكررا قراءتها ملتصقا أكثر بشخوصها ودفء مدينة يعيشون فيها وعوالم ناسها. إنها رواية شقت طريقها بقوة ومقدرة إلى قلب القارئ وذاكرته وهواجسه مقدمة لنا روائيا وضع عبرها بصمته في عالم الرواية العربية بل وضعها بقوة وفاعلية كبيرتين.

عبدالرحمن حمادي: ناقد ومسرحي من سورية

هذه الرواية تأخذ بلباب المتلقي بأسلوبها الشائق، محققا بلاغة السرد في أجمل صورها، وهي أيضا تخلب الذهن ببنائها الذي يغوص في أعماق شخصيات المدينة في توجهاتها وتحزباتها، وهم في أتون معركة انتخابية، لا يعلمون أنها قد حسمت سلفا.

د.مصطفى عطية جمعة: ناقد وأكاديمي من مصر

كافة إصداراتنا
متوفرة على الموقع
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com

9 789933 440145

خطوات للنشر والتوزيع

Khatawat
2010